أسرة ابن الصاحب
ودورها في الخلافة العباسية
خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي

د. شيرين شلبي أحمد العشماوي
قسم التاريخ– كلية البنات– جامعة عين شمس

نتناول في هذا البحث دراسة أسرة عراقية، شيعية المذهب، اشتهرت بلقب "ابن الصاحب"[1]، تولت خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي اثنين من أهم المناصب في الخلافة العباسية، ونال آخرهم " مجد الدين بن الصاحب " شهرة كبيرة في عهد الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ – ٦٢٢ هـ/ ١١٨٠ – ١٢٢٥ م)، وفيما يلي نوضح أولى المناصب التي تولتها الأسرة.

حاجب باب النوبي:

يختص بحفظ الأمن في بغداد، تولته الأسرة لمدة قاربت على النصف قرن، اظهرت خلالها كفاءة كبيرة وحظيت بثقة الخلفاء، ولهذا صار المنصب كأنه إرث مستحق في العائلة يتولاه الابن بعد الأب حتى تولاه الحفيد مجد الدين بن الصاحب.

وباب النوبي[2] أحد أبواب السور المحيط بدار الخلافة ببغداد[3]، وترتيبه الرابع من جهة الغرب[1]، وعرف أيضاً " بباب العتبة "[2] لوجود "العتبة"[3] التي يقوم الرسل والملوك بتقبيلها

---

(١) اشتهرت الأسرة بلقب ابن الصاحب، وظهر ذلك في كتابات ابن الجوزي – أهم مؤرخي العراق في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي – حيث اكتفى في معظم كتاباته عن الأسرة بذكر لقب ابن الصاحب على من يقصده منهم، مما يشير إلى أن شهرتهم بهذا اللقب كانت غالبة، ولم يذكر اسم أحدهم كاملا سوى مرة واحدة في أحداث عام ٥٥٠ هـ/ ١١٥٥م. المنتظم (دار صادر بيروت مصورة من الطبعة الأولى حيدر أباد الدكن ١٩٣٩، ج ٩، ص٢٢٣، ج١٠، ص ٤، ٥٠ –٥١، ٨٦، ١١٩، ١٦١، ٢٢٧، ٢٥٦، ٢٥٩.

(٢) باب النوبي: يرجع أصل تسميته إلى أخوين عملا بحراسة الباب في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، من أسرة تسمى بالنوبي فنسب إليهم، وهما سعيد النوبي ت ٣١٤ هـ/ ٩٢٦ م وأخوه فضل وقيل يوسف. ابن الجوزي: المنتظم، ج ٦، ص ٢٠٣

(٣) بنى الخليفة أبو جعفر المنصور (١٣٦ – ١٥٨ هـ/ ٧٥٤ – ٧٧٥ م) العاصمة بغداد وكانت تضم الأراضي الواقعة على جانبي نهر دجلة من الشرق والغرب، فاتخذ من الجانب الغربي من النهر مقرا للخلافة وانتقل إليها عام ١٤٩ هـ/ ٧٦٦ م، ثم نقل الخليفة المعتضد بالله (٢٧٩ – ٢٨٩ هـ/ ٨٩٢ – ٩٠١ م) مقر الخلافة إلى الجانب الشرقي، وجعل القصر الحسني مقرا لإقامته، ومنذ ذلك الوقت انتشرت القصور التابعة للخلافة، مثل التاج ودار الشجرة ودار المثمنة ودار المربعة ودار الخيل ودار الريحانين، وكانت تمثل ثلث مساحة بغداد، و أطلق عليها جميعا دار الخلافة، وعرفت أيضا باسم الحريم، وأقيم حول دار الخلافة سور كبير على شكل نصف دائرة، يبدأ من نهر دجلة وينتهي عنده، وله ستة أبواب كان باب النوبي أحدها. الخطيب البغدادي: تاريخ مدينة السلام (تحقيق د بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط الأولى ٢٠٠١ م) ج ١، ص ٣٧٦، ٤١٦؛ ابن جبير: رحلة ابن جبير (دار صادر بيروت ١٩٦٤ م) ص ٢٠٠؛ ابن الجوزي: المنتظم، ج ٥، ص ١٤٤؛ ياقوت: معجم البلدان (دار صادر بيروت ط الثانية ١٩٩٥) ج ١، ص ٣٥٧، ج ٢، ص ٢٥٠ – ٢٥١، ٤١٩ – ٤٢٣؛ أبو الفداء: تقويم البلدان (مكتبة الثقافة الدينية القاهرة ٢٠٠٦) ص ٣٣٩؛ القلقشندي: صبح الأعشى (المطبعة الأميرية القاهرة ١٩١٤ م)، ج ٤، ص ٣٣٠ – ٣٣١.

عند دخولهم من الباب لزيارة بغداد[٤]، وأضفى هذا عليه – في رأينا – أهمية كبيرة، وصار بذلك الباب الرسمي للخلافة المخصص لدخول الزوار، ولهذا لقبته المصادر تارة "بباب النوبي الشريف"[٥] وتارة أخرى "بباب النوبي المحروس"[٦]. وكان من الضروري لتأمين هذا الباب أن يعين له "حاجب"[٧]، صار يعرف بحاجب باب النوبي أو حاجب الباب[٨]. ووظيفته من الوظائف المهمة، فكان كما تذكر المصادر يتولى النظر في المظالم[٩]، وإقامة الحدود[١٠]، وبمعني أدق كان حاجب باب النوبي مدير شرطة بغداد العام ومسئولا عن حفظ الأمن بها[١١].

---

(١) أول أبواب دار الخلافة من ناحية الغرب باب الغربة، يليه باب سوق التمر، ثم باب البدرية ثم باب النوبي، وباب العامة وأخيرا باب المراتب. وأطلق ابن الفرات علي باب النوبي أيضا اسم الباب الخلفي. ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٥٠ – ٢٥١؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص ٣٣٩؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات (تحقيق د حسن الشماع، البصرة ١٩٦٩ م) ج ٤، ص ١٨؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٣١.

(٢) ياقوت: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٥١؛ أبو الفداء: المصدر السابق، ص ٣٣٩.

(٣) العتب: الدرج، وأطلق عليها أيضا أسكفة الباب التي توطأ، وهي كأنها حاجب يحجب الباب. ابن منظور: لسان العرب (تصحيح أمين عبد الوهاب، دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت ط الثالثة، ١٩٩٩ م) ج ٩، ص ٢٨.

(٤) كانت المراسم المتبعة في الخلافة عند وصول أحد الرسل خروج موكب لاستقباله حيث يقوم الرسول بتقبيل العتبة عند باب النوبي، ومن يرفض ذلك من الرسل فقد أوجب لنفسه المهانة ابن الساعي: الجامع المختصر (تحقيق د مصطفي جواد، المطبعة الكاثوليكية بغداد ١٩٣٤)، ج ٩، ص ١٩، ١٦٨–١٦٩، ٢٠٢، ٢٥٩.

(٥) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق (تحقيق د حسن حبشي الهيئة العامة للكتاب مصر، ط الثانية ٢٠٠٤ م)، ص ٢٣٢؛ المنذري: التكملة لوفيات النقلة (تحقيق د بشار عواد، مؤسسة الرسالة بيروت ط الثالثة ١٩٨٤)، ج ١، ص ٦٦، ج ١، ص ٦٦؛ ابن الساعي: المصدر السابق، ج ٩، ص ٢٥٠، ٢٨٣.

(٦) ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام (تحقيق د بشار عواد، دار الغرب الإسلامي بيروت ط الأولى ٢٠٠٦م)، ج ٢، ص ٦٢، ٢٦٤، ج ٤، ص ٩٩، ٥٥٨؛ ابن الساعي: الجامع المختصر، ج ٩، ص ١٧، ١٩.

(٧) الحاجب: في اللغة البواب، وجمعه حجبه وحجاب، وحجبه اي منعه من الدخول. ابن منظور: لسان العرب، ج ٣، ص ٥٠.

(٨) ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٨٦، ١١٩، ١٦٠، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢١١.

(٩) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٩، ص ٢٦؛ الصفدي: الوافي بالوفيات (تحقيق أحمد الأرناؤوط، دار إحياء التراث العربي بيروت ط الأولى ٢٠٠٠ م)، ج ١٩، ص ١٢٣.

(١٠) الصفدي: المصدر السابق، ج ٢٧، ص ٤٧.

(١١) د مصطفي جواد: مقدمة تحقيقه كتاب الجامع المختصر لابن الساعي، ج ٩، ص يب مقدمة تحقيقه معجم الألقاب لابن الفوطي، ج ١، ص ١٤؛ د سوادي عبد محمد: حاجب باب النوبي (بحث منشور بمجلة المؤرخ العربي بغداد العدد ٢٧ السنة ١٢، ١٩٨٦ م)، ص ١٥٨.

وخصص له عدة أماكن عند الباب لممارسة عمله الأمني ومعاقبة المتهمين، من ذلك حجرة يتم فيها حجزهم، و"دكة"[١] خارج الباب يعاقبون عليها[٢]، كما كان له أيضاً مكتب يمارس فيه عمله مع معاونيه[٣]، وخصصت له بعض الأمور لوظيفته منها أن يجلس على مخدة، ويتسلم"دواة"[٤] للتوقيع بنفسه على كتب الشهود[٥]. ويعاون حاجب باب النوبي جهاز أمني كبير حيث يتم تعيين قاض للباب[٦]، وكان للحاجب نائب عنه يليه في المكانة[٧]، وهناك أيضاً صاحب الخبر[٨]، والنقيب[٩]، ويعاونه بالإضافة إلى ذلك العديد من قوات الشرطة والوكلاء المحضرين والغلمان والفراشين[١٠] والمسالحة[١١].

---

(١) الدكة: بناء يبنى للجلوس عليها، وتسمى دكة حاجب الباب، وذكرت عند جلوس السلطان السلجوقي طغرلبك عليها عام ٤٥١ هـ/ ١٠٥٩ م. ابن الجوزي: المنتظم، ج ٨، ص ٢٠٨، ج ١٠، ص ٤٩، ١٠٣، ١٤٧؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ٤، ص ٣٨٢.

(٢) أورد ابن الجوزي مثالا في عام ٥٢٥ هـ/ ١١٣١ م لمتهمين شهدوا شهادة زور، فأقيموا على الدكة ودُرروا، أي تمت معاقبتهم بالضرب بالدرة وهي وسيلة عقاب عربية معروفة، وشهد عقابهم العامة ثم أعيدوا إلي الحجرة، ومن الواضح أن الحجرة كانت مكانا للحبس المؤقت. للمزيد انظر. ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٠، ص ٢١، ١٤٧؛ ابن الساعي: الجامع المختصر، ج ٩، ص ١٢١، ٢٠٠؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ٤، ص٢٣٧

(٣) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ٢٣٢.

(٤) الدواة: تشتمل علي سبع عشرة آلة كلها تبدأ بحرف الميم منها المزبر وهو القلم، والمقلمة والمدية – أي السكين – والمسطرة والمسن. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢، ص ٤٣١ – ٤٧٢.

(٥) ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ١٠، ص٢٣٠؛ ابن الفرات: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٠٣.

(٦) من القضاة الذين عملوا بالباب القاضي ابن الصباغ، والقاضي الكرخي. ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ٢٣٣؛ الصفدي: الوافي، ج ١٧، ص ٢٣١.

(٧) نائب حاجب الباب: أقل مكانة من الحاجب، وينوب عنه لإخماد الفتن، ومن أمثلة ذلك أرسله الحاجب لقمع الفتنة بين السنة والشيعة في المدرسة النظامية، ومن النواب أبو العز المؤيدي وابن الظهري. ابن الجوزي: المنتظم، ج ٩، ص ١٥٧، ١٩٩، ج ١٠، ص ٢٣٠؛ ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ١٤٦، ٢٣٣.

(٨) صاحب الخبر: يقال لمن تولاه رتب على الخبر، وكان مسئولا عن إقرار العقوبة على المتهمين، وإذا قصر في تنفيذ العقوبة يعاقب بالضرب. عمل بها ابن الحلال وعلي بن روح. ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٠، ص٢٣٠؛ ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ٢٣٣؛ الصفدي: الوافي، ج ٢١، ص ٧٦؛ ابن الفرات: تاريخه، ج ٤، ص ١٠٣.

(٩) النقيب: هو المسئول عن تنفيذ العقوبة وغالبا عقوبة ضرب المتهمين، ومن أشهر النقباء مسعود الذي توفي في عام ٥٧٥ هـ/ ١١٨٠ م. للمزيد انظر. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (الطبعة الأولى حيدر أباد الدكن ١٩٥٢م) ج ٨، ص ٣٥٨، ٣٧٣.

(١٠) ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ١٠، ص٢٠٤، ٢٣٠؛ ابن الفرات: المصدر السابق، ج ٤، ص١٠٢.

(١١) ابن الساعي: الجامع المختصر، ج ٩، ص ١٤٧، ١٤٩، ٢٢٨.

أول من عمل بوظيفة حاجب باب النوبي من أسرة ابن الصاحب: " ضياء الدولة[١] أبو الفضل هبة الله بن محمد بن الحسن بن الصاحب"[٢]، وتولاها لمدة عشرين عاما متصلة (٥١٤- ٥٣٤ هـ/ ١١٢٠- ١١٤٠ م)، وتعاقب عليه خلال تلك الفترة ثلاثة من الخلفاء العباسيين، جددوا كلهم ثقتهم به وأبقوه في عمله مما يؤكد كفاءته.

كان الخليفة المسترشد بالله (٥١٢ – ٥٢٩ هـ/ ١١١٨ – ١١٣٥ م) قد اختار هبة الله بن الصاحب للوظيفة عقب نقله الحاجب الأسبق إلى وظيفة أخرى[٣]، في شهر صفر عام ٥١٤ هـ/ ١١٢٠ م[٤]، وكان قد تعاقب على الوظيفة قبل هبة الله ثلاثة خلال عامين ٥١٢ – ٥١٤ هـ/ ١١١٨ – ١١٢٠ م[٥]، ومنذ أن تولاها هبة الله استقر فيها خمسة عشر عاما إلى نهاية عهد المسترشد بالله في عام ٥٢٩ هـ/ ١١٣٥ م.

ولا نعلم الكثير عن هبه الله بن الصاحب فلم تمدنا المصادر الإسلامية غير ببعض الإشارات التي تعكس بعض جوانب شخصيته، من ذلك أنه كان في الستين من عمره عندما اختاره الخليفة المسترشد بالله[٦] ومع ذلك أظهر كفاءة كبيرة دلل عليها استقراره في الوظيفة لمدة طويلة.

درس هبة الله علم الحديث ورواه بإجازة من أشهر العلماء في بغداد[٧]، ونرجح أن ذلك كان من أسباب اختياره[١]، كما عكست الألقاب التي منحها له الخليفة المسترشد بالله شخصيته الوقورة المتدينة، حيث لقبه: "بالأجل"[٢]، "قوام"[٣] الإسلام مجد الدين"[٤].

---

(١) ابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء (تحقيق د قاسم السمرائي، دار الأفاق العربية القاهرة الطبعة الأولى ١٩٩٩ م)، ص ٢١١.

(٢) ابن العمراني: المصدر السابق، ص ٢١١؛ ابن الكازروني: مختصر التاريخ (تحقيق د مصطفي جواد، المؤسسة العامة للصحافة والطباعة، بغداد ١٩٧٠ م)، ص ٢٢٣؛ الأربلى: خلاصة الذهب المسبوك (ضبطه مكي السيد، مكتبة المثنى بغداد ١٩٦٤ م)، ص ٢٧٣، واختلف في اسم جده وذكره الحسين، وأوردته معظم المصادر باسم الحسن؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٦، ص ٤٩٠.

(٣) ابن العمراني: المصدر السابق، ص ٢١١.

(٤) ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ٩، ص ٢١٦؛ ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج ٣، ص ٢٠٥.

(٥) هم أبو جعفر بن الدامغاني وأبو غالب بن المعوج وأبو الفتوح حمزة بن طلحة. ابن الجوزي: المنتظم، ج ٩، ص ١٩٩، ٢١٦؛ ابن الكازروني: مختصر التاريخ، ص ٢٢٣؛ الأربلي: خلاصة الذهب، ص ٢٧٣.

(٦) ولد هبة الله في عام ٤٥٣ هـ/ ١٠٦١ م. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٦، ص ٤٩٠.

(٧) روى هبة الله الحديث الشريف عن أبي نصر الزينبي وهو من أهم علماء بغداد، وكان يلقب بمسند الوقت أبي نصر محمد بن محمد بن علي... العباسي الهاشمي ينسب إلي زينب بنت سليمان، وهي في ظن السمعاني زوجة الإمام إبراهيم، أحد الأئمة العباسيين، والمنتسب إليها بيت قديم في بغداد، واشتهر عن أبي نصر الزينبي الزهد والتصوف وتوفي عام ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ م. السمعاني: الأنساب (تحقيق الشيخ عبد الرحمن اليماني وآخرون،

ظل هبة الله بن الصاحب في وظيفته[٥] حتى وفاة الخليفة المسترشد بالله في ذي القعدة عام ٥٢٩ هـ/ ١١٣٥م، وتلقى مع أستاذ الدار وصاحب الديوان عزاء الخليفة[٦]. ولما تولي الخليفة الراشد بالله (٥٢٩ – ٥٣٠ هـ/ ١١٣٥ – ١١٣٦م) أبقى هبة الله حاجبا لباب النوبي[٧]، وظل يمارس مهامه[٨].

أبقى أيضاً الخليفة المقتفي بالله (٥٣٠ – ٥٥٥ هـ/ ١١٣٦ – ١١٦٠ م) هبة الله بن الصاحب في وظيفته[٩] لمدة أربع سنوات[١٠]، ثم عزله – في الأغلب بسبب كبر سنه – في رمضان عام ٥٣٤ هـ/ ١١٤٠م[١١]، وأسند الوظيفة إلى حاجب آخر[١]، وتوفي هبة الله بن

مكتبة ابن تيمية القاهرة الطبعة الثانية ١٩٨٠ م)، ج ٦، ص ٣٤٥؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٣٢، ص ٢٨٠، ج ٣٦، ص ٤٩٠؛ سير أعلام النبلاء (تحقيق محب الدين العمروي، دار الفكر بيروت ط الأولى ١٩٩٧)، ج ١٣، ص ٦٩٤ – ٦٩٥.

(١) كان التدين وتقوي الله من أهم شروط الإختيار لوظيفة حاجب الباب، ففي أحداث عام ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ م ذكر ابن الجوزي: " ولما رأى أمير المؤمنين في.. من.. والديانة.. قلده المظالم وقد أخذ عليه تقوى الله ". المنتظم، ج ٩، ص ٢٦.

(٢) الأجل: أفضل التفضيل من جليل بمعني عظيم. حسن الباشا: الألقاب الإسلامية (القاهرة ١٩٨٩)، ص١٢٦.

(٣) القوام: العدل. حسن الباشا: الألقاب الإسلامية، ص ٤٣٢.

(٤) ابن العمراني: الإنباء، ص ٢١١.

(٥) من أشهر الأحداث التي ورد فيها دور هبة الله كانت أحداث عام ٥٢١ هـ/ ١١٢٧ م، وفيها اتسع نطاق عمله الأمني في بغداد بعد الإضطرابات التي أحدثها السلاجقة وقابلها نهب العامة لدور السلاجقة، فعمل علي إعادة ما تم نهبه، وقبض علي الكثير. لمزيد من التفاصيل انظر. ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٠، ص ٤.

(٦) قام بذلك هبه الله نظرا لخلو بغداد من كبار رجال الدولة الذين وقعوا في أسر السلاجقة، وكان منهم الوزير وصاحب المخزن وقاضي القضاة، وأفرج عن المأسورين في عام ٥٣٠ هـ/ ١١٣٥ م. ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٠، ص ٤٥– ٤٦، ٥٠، ٥٥.

(٧) ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٥١؛ ابن الكازروني: المصدر السابق، ص ٢٢٧؛ الأربلي: المصدر السابق، ص ٢٧٥.

(٨) أسند إليه الخليفة الراشد بالله قراءة " انهاء " علي الناس، وفيه تبرئة لذمة المسترشد بالله المالية ومراجعة حقوق الناس والتي كان يطلبها نواب المسترشد بالله بغير حق، باعتبار ذلك جزءا من عمل حاجب الباب وهو النظر في المظالم. ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٠، ص ٥١.

(٩) ابن الكازروني: المصدر السابق، ص ٢٣٢.

(١٠) من أبرز أعماله في عهد الخليفة المقتفي بالله التي اتسمت بالطابع السياسي قيامه مع القاضي بإعلان الاتفاق العباسي السلجوقي وإنهاء الخلافات بينهما، وإقامة الخطبة في جوامع بغداد باسم الخليفة المقتفي بالله والسلطان مسعود في شهر شعبان عام ٥٣١ هـ/ ١١٣٧م وضربت الطبول على باب النوبي احتفالا بذلك. ابن الجوزي :المنتظم، ج ١٠، ص ٦٩.

(١١) ابن الجوزي: المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٨٦.

الصاحب في شهر ربيع الآخر عام ٥٣٨ هـ/ ١١٤٣م[٢]، بعد أن قضى في وظيفة حاجب باب النوبي عشرين عاما، وضع خلالها سمعة جيدة للأسرة، ولهذا ستظل الوظيفة في أسرته من بعده.

تردد لقب عائلة ابن الصاحب في أحداث شهر رجب عام ٥٤١ هـ/ ١١٤٦م[٣]، حيث أوضح ابن الجوزي أن حاجب الباب كان من الأسرة، ولكنه لم يصرح باسمه[٤]، ولا بتاريخ ولايته الوظيفة، واكتفى بتاريخ عزله في شهر ذي القعدة عام ٥٤١ هـ/ ١١٤٦م[٥]، ونرجح أنه كان أحد أبناء هبة الله بن الصاحب وتحديدا ابنه " محمد الملقب بأبي المعالي"[٦], حيث أشار الذهبي إلى ولايته الحجابة في بداية عهد المقتفي بالله[٧]. وإن كان محمد لم تتاكد فترة ولايته للوظيفة فإنه نال شهرة كبيرة في علم الحديث، الذي اتضح أنه يلقى اهتماما كبيرا في الأسرة، وتعلمه على كبار شيوخ بغداد[٨]، ودل على شهرته حرص القاضي "عمر الدمشقي"[٩] على الاجتماع به عند زيارته بغداد في عام ٥٥٣ هـ/ ١١٥٨ م، وأخرج عنه حديثا

---

(١) تولى وظيفة حاجب باب النوبي بعد هبة الله كامل بن مسافر ثم عزل في ذي الحجة عام ٥٣٤ هـ/ ١١٤٠م ثم تولاها ابن المعوج. ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٠، ص ٨٦؛ ابن الكازروني: مختصر التاريخ، ص ٢٣٢؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٨، ص ١٧٢.

(٢) الذهبي: المصدر السابق، ج ٣٦، ص ٤٩٠.

(٣) تردد اسم حاجب الباب ابن الصاحب بسبب عودة الاضطرابات بين الخلافة العباسية ودولة السلاجقة في بغداد، وترتب عليها قيام السلاجقة بالقبض على حاجب الباب لمدة أسبوع للمزيد انظر. ابن الجوزي: المنتظم، ج١٠، ص ١١٩.

(٤) كان ابن الجوزي – كما ذكرنا سابقا – في أغلب كتاباته يكتفي بذكر لقب أسرة ابن الصاحب

(٥) المصدر السابق، ج ١٠، ص ١٢٠.

(٦) ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج ٢، ص ١٤٨.

(٧) المصدر السابق، ج ٣٨، ص ١٧٢.

(٨) من شيوخه أبو بكر أحمد بن علي بن بدران الحلواني البغدادي المقرئ الزاهد: ولد عام ٤٢٠ هـ/ ١٠٢٩ م، ووصف بأنه شيخ صالح عالي الرواية، توفي عام ٥٠٧ هـ/ ١١١٣ م ابن الجوزي: المنتظم، ج ٩، ص ١٧٥؛ ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج ٢، ص ١٤٨؛ الذهبي: سير أعلام، ج ١٤، ص ٣٥٥؛ تاريخ الإسلام، ج ٣٥، ص ١٥٤.

(٩) عمر بن الخضر أبو المحاسن القرشي: ولد بدمشق عام ٥٢٦ هـ/ ١١٣٢م، ووصف بأنه عالم ثقة، عنى بدراسة علم الحديث وسماعه، زار بغداد واستقر بها وتولى القضاء بحريم دار الخلافة وتوفي بها في ذي الحجة عام ٥٧٥ هـ/ ١١٨٠م. ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج ٤، ص ٣٢٩ – ٣٣٢؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤٠، ص ١٧٥ – ١٧٦.

شريفا[١]، وتحدث عمر الدمشقي كثيرا عن محمد بن هبة الله مع تلميذه في ذلك الوقت المؤرخ ابن الدبيثي[٢].

ظلت وظيفة حاجب باب النوبي أو حاجب الباب بعيدة عن أسرة ابن الصاحب[٣] إلى أن عادت إليها في عهد الخليفة المقتفي بالله أيضاً في عام ٥٥٠ هـ/ ١١٥٥ م، وأسندها إلى "أبي القاسم علي"، أحد أبناء هبة الله بن الصاحب حيث أكدت ذلك الكثير من المصادر الإسلامية[٤]، واختلف معهم ابن الجوزي- في المرة الوحيدة التي ذكر فيها اسم أحد أفراد الأسرة كاملا- وذكر أن أبا القاسم علي حفيد هبة الله من ابنه محمد[٥]، وهذا لا يتفق مع رأي أغلب المصادر.

وكان أبو القاسم علي يلقب بالأجل مثل والده[٦]، وظل حاجبا لباب النوبي بقية عهد المقتفي بالله، ولما تولى الخليفة المستنجد بالله (٥٥٥- ٥٦٦ هـ/ ١١٦٠ - ١١٧١ م) في عام ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م أبقى عليه في وظيفته[٧].

---

(١) قال ابن الدبيثي: " أنبأنا أبو المحاس عمر.. قال: أخبرنا أبو المعالي محمد بن هبة الله بن الصاحب قال: أخبرنا أبو بكر أحمد... الحلواني قال أخبرنا... عن.. عن..عن النبي قال: لا نورث ما تركناه صدقة ". ذيل مدينة السلام، ج ٢، ص ١٤٨ – ١٤٩.

(٢) من ذلك تحدث عمر الدمشقي مع ابن الدبيثي عن تاريخ مولد أبي المعالي محمد فذكر له أنه ولد في عام ٤٨٤ هـ/ ١٠٩٠ م، كما أمده بتاريخ وفاته بدقة في ليلة الجمعة الثالث عشر من جمادى الآخرة عام ٥٧١ هـ/ ١١٧٥ م. ذيل مدينة السلام، ج ٢، ص ١٤٩.

(٣) تولاها ابن الصيقل في ذي القعدة عام ٥٤١ هـ/ ١١٤٧ م وعزل في عام ٥٥٠ هـ/ ١١٥٥ م وعين بعده لأيام الكيا الهراسي. ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٠، ص ١٢٠، ١٦٠ – ١٦١؛ ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج ٣، ص ٣٢٧ – ٣٢٧؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٨، ص ١٧٢.

(٤) ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج ٤، ص ٥٥٨، ج ٥، ص ٩٣؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (تحقيق إبراهيم الزيبق، الرسالة العالمية، دمشق، ط الأولى ٢٠١٣)، ج ٢١، ص ٣٥٢؛ المنذري: التكملة، ج ١، ص٦٦؛ ابن الكازروني: مختصر التاريخ، ص ٢٣٢؛ الأربلي: خلاصة الذهب، ص ٢٧٦؛ ابن الفوطي: مجمع الآداب (تحقيق محمد كاظم، طهران ط الأولى ١٩٩٥ م)، ج ٤، ص ٥٤٥؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٨، ص ١٧٢؛ ج ٤١، ص ١٦٧؛ الصفدي: الوافي، ج ٢٧، ص ١٧٨؛ ابن أبي عذيبة: إنسان العيون (تحقيق د إحسان الثامري، دار ورد الأردن ط الأولى ٢٠٠٧ م)، ص ٨٦

(٥) المنتظم، ج ١٠، ص ١٦١.

(٦) المنذري: المصدر السابق، ج ١، ص ٦٦.

(٧) ابن الدبيثي: المصدر السابق، ج ٤، ص ٥٥٨؛ ابن الكازروني: المصدر السابق، ص ٢٣٦؛ الأربلي: المصدر السابق، ص ٢٧٨.

ومن الأمور الإيجابية التي تحسب لأبي القاسم علي أثناء عمله تصديه للرشوة والفساد الذي انتشر بين بعض معاونيه، فقام في شهر رجب عام ٥٥٧ هـ/ ١١٦٢م، بسن قواعد للرسوم المقررة نظير كتابة المحاضر وغيرها من الكتب، وشرط عليهم تنفيذ قراراته، وقد انفرد ابن الجوزي بتوضيح ذلك فقال: "جمع الوكلاء والمحضرون والشهود كلهم عند حاجب الباب، وشرط عليهم أن لا "يتبرطلوا"[١] من أحد، ولا يأخذ الشروطي في كتب البراءة أكثر من "حبتين"[٢]، ولا المحضر أكثر من حبة ولا الوكيل أكثر من قيراطين، وأشهدوا عليهم الشهود بذلك وسببه جناية جرت بينهم في ترويج كتاب"[٣].

أيضاً في ذي الحجة عام ٥٥٨ هـ/ ١١٦٣م أضيف إلي مهامه "النظر في محلة باب البصرة"[٤]، فنظم أمورها[٥]، وهذا يعكس كفاءته وثقة الخليفة به

ظل أبو القاسم علي بن الصاحب حاجبا لباب النوبي حتي وفاته في شهر جمادى الآخرة عام ٥٦٤ هـ/ ١١٦٩م، بعد أن قضى أربعة عشر عاما متصلات في الوظيفة منذ ولايته في عام ٥٥٠ هـ/ ١١٦٠م[٦].

وحقق بذلك- في رأينا- هو ووالده هبة الله بن الصاحب أكبر فترة استقرار في الوظيفة، وانفردا بطول فترة ولايتهما بين جميع من عمل بها مما يؤكد كفاءتهما. وهذا ما حافظ على استمرارها في الأسرة، ولهذا أسندها الخليفة المستنجد بالله إلى أحد أبناء أبي القاسم علي بعد وفاته[٧]، استبشارا بماضي الأسرة وكفاءتها.

---

(١) البرطل: الرشوة جمع براطيل، ويقال فلان رشاه فتبرطل فارتشي. الفيروزابادي: القاموس المحيط (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩)، ج ٣، ص ٣٢٣.

(٢) الحبة: هي مكون وزن الدرهم، وتزن حبة متوسطة من الشعير التي لم تقشر وقطع من طرفها ما امتد، واختلف حول عدد الحبات، والأغلب ما سمي بالدرهم الشرعي، ويزن الدرهم الواحد خمسين حبة وخمسا. المقريزي: شذور العقود في ذكر النقود (مخطوط قامت بتصويره مكتبة المصطفى الإلكترونية)، ورقة ٦١، ٦٤؛ المناوي: النقود والمكايل والموازين (تحقيق د إحسان السامرائي، سلسلة كتب التراث ١٠٧ العراق ١٩٨١م)، ص٥٢، ٧٩.

(٣) المنتظم، ج ١٠، ص ٢٠٤.

(٤) محلة باب البصرة: من المحال التي كانت لا تزال آهلة بالجانب الغربي من بغداد، وهي مدينة وبها جامع الخليفة أبو جعفر المنصور. ابن جبير: رحلته، ص ٢٠٠ – ٢٠١.

(٥) ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ١٠، ص٢٠٦.

(٦) ابن الجوزي: المصدر السابق، ج١٠، ص٢٢٧؛ ابن الدبيثي: المصدر السابق، ج٤، ص٥٥٨.

(٧) لم تحدد بعض المصادر اسم ابن أبي القاسم علي، واكتفت بذكر ولاية ابنه من بعده. ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٠، ص ٢٢٧؛ ابن الفرات: تاريخه، ج ٤، ص ١٨.

فأسندها إلي "هبة الله بن علي بن هبة الله بن الصاحب"[١]، أسماه والده مثل جده تيمنا به، ولم يكتف هبة الله باسم جده بل لقب بألقابه، ومنها" الأجل[٢]" و"مجد الدين" وكني مثله "بأبي الفضل"[٣]، واشتهر بمجد الدين بن الصاحب.

وفي رأينا لم تكن سمعة الأسرة وخبرتها سببا كافيا لاختياره خلفا لوالده، فكان مجد الدين شابا صغيرا في أوائل العشرين من عمره[٤]، ولايزال بحكم سنه متسرعا بعيدا عن صفات من من يتولى النظر في المظالم ومنها الوقار، والهيبة وعلو القدر[٥]، ولهذا تعرض لمشكلة كبيرة بعد عام تقريبا من ولايته بسبب تسرعه وعدم دقته في اتخاذ قرارته.

حيث وقع في شهر جمادى الأولى عام ٥٦٥ هـ/ ١١٧٠م نزاع بين أسرتين مسيحيتين، بسبب رفض أحد الأشخاص زواج ابنته من العريس الذي تقدم لخطبتها[٦]، فأصر الخاطب بعد موافقة العروس على إتمام الزواج، وشجعه على ذلك صلته ببعض كبار الدولة وهم أستاذ الدار وحاجب الباب، فلجأ إليهم فساعدوه على إتمام الزواج، وأمده حاجب الباب بعدد من الغلمان والفراشين[٧].

لا ندري لماذا ساعده مجد الدين، وما هي حساباته وقتها، فشخصيته التي ظهرت لنا من خلال البحث تؤكد طموحه وحرصه السريع على بلوغ أعلى الرتب.

---

(١) ابن الدبيثي: المصدر السابق، ج ٥، ص ٩٣؛ ابن الكازروني: المصدر السابق، ص ٢٣٦؛ الأربلي: المصدر السابق، ص ٢٧٨؛ ابن الفوطي: المصدر السابق، ج ٤، ص ٥٤٥– ٥٤٦؛ الذهبي: المصدر السابق، ج ٤١، ص ١٦٧– ١٦٨؛ الصفدي: المصدر السابق، ج٢٧، ص ١٧٨؛ ابن أبي عذيبة: المصدر السابق، ص٨٦.

(٢) المنذري: المصدر السابق، ج١، ص ٦٦.

(٣) العماد الأصفهاني: سنا البرق الشامي (اختصار البنداري، تحقيق د فتحية النبراوي، الخانجي القاهرة ١٩٧٩م)، ص ٣٠٢؛ ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ٣١؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ (دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨)، ج ٩، ص ١٣٨، ١٨٩؛ سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج٢١، ص٣٥٢؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان (تحقيق د إحسان عباس دار صادر بيروت ١٩٧٨م)، ج٦، ص٢٤٥؛ الذهبي: العبر في خبر من غبر، (تحقيق أبي هاجر محمد بسيوني، دار الكتب العلمية بيروت ط الأولى ١٩٨٥م)، ج٣، ص٨٧؛ اليافعي: مرآة الجنان (دار الكتاب الإسلامي القاهرة، ط الثانية ١٩٩٣)، ج٣، ص٤٢٦؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج١٢، ص٣٢٨.

(٤) كان يبلغ الثالثة والعشرين من عمره، وكانت بعض المصادر ذكرت عمره عند وفاته في عام ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧م، وحددت أنه كان يبلغ وقتها احدى وأربعين سنة؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٢١، ص ٣٥٢؛ الذهبي: العبر، ج ٣، ص ٨٧؛ تاريخ الإسلام، ج ٤١، ص ١٦٨.

(٥) الماوردي: الأحكام السلطانية (دار الكتب العلمية بيروت)، ص ٩٧.

(٦) سنتاول هذا الموضوع بالتفصيل عند ذكر علاقة مجد الدين بن الصاحب بأعيان بغداد.

(٧) ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٢٣٠؛ ابن الفرات: تاريخه، ج ٤، ص ١٠٢.

على أي حال تمت المراسم الكنسية لعقد الزواج، وكانت نتائجها بالغة السوء على مجد الدين بن الصاحب حيث اشتكي والد العروس إلى الخليفة المستنجد بالله الذي أصدر أوامره بإلغاء الزواج ثم أنزل عقوبات مشددة على معظم المشاركين فيه، ومنهم حاجب الباب، حيث خفض الخليفة مكانته إلى درجة نائب، وحرمه من كل حقوقه، ومنها التوقيع على الكتب. وقد انفرد ابن الجوزي بتفاصيل تلك العقوبات فقال: "وضرب صاحب الخبر في الباب ضربا عجيبا لأنه قصر في العقوبة، وحطت مرتبة حاجب الباب من منزلته وجعل نائبا لا يجلس على مخدة ولا بين يديه دواة وفوضت العلامة في الكتب إلى "ابن البراج"[١]، فلا تشهد الشهود إلا في كتاب فيه علامته"[٢] .

يتضح من ذلك أن الخليفة المستنجد بالله لم يختر حاجبا آخر لباب النوبي، واكتفى بأن أسند مهمة التوقيع على الكتب إلى ابن البراج، ولعله راعى ماضي الأسرة، التي لم يحدث طوال تاريخها أن عوقب أحد منهم سوي مجد الدين بن الصاحب، ومن المؤكد أن مجد الدين حاول استعادة مكانته، ولكنه وجد صعوبة في تحقيق ذلك في بقية عهد الخليفة المستنجد بالله (٥٥٥ – ٥٦٦هـ/ ١١٦٠ – ١١٧١م) بسبب ما اشتهر عن قوة الخليفة وكذلك عن وزيره ابن البلدي[٣] حتى كرههم الكثير من رجال الدولة، وخافوا على أنفسهم، خاصة أستاذ الدار عضد الدين بن رئيس الرؤساء[٤]، وكبار الأمراء والحجاب[٥].

ساءت علاقة الخليفة المستنجد بالله أيضاً بابنه "أبي محمد الحسن"، بسبب قلقه من الاجتماعات والمراسلات بين ابنه ومملوكه قطب الدين قايماز[٦]– الذي كان الخليفة أسند إليه

---

(١) يحيى بن أحمد بن علي أبو شجاع: عمل ناظرا في وقف المدرسة النظامية في عام ٥٦٠ هـ/ ١١٦٥م ثم عمل وكيلا بباب القضاة، وتوفي في عام ٥٧٢ هـ/ ١١٧٧م. ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٠، ص ٢١٠؛ ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج ٥، ص ١١٠ – ١١١.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٠، ص ٢٣٠؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج ٤، ص ١٠٣.

(٣) شرف الدين أبو جعفر بن محمد: ولى الوزارة عام ٥٦٣ هـ/ ١١٦٨م، وحد من سلطة أستاذ الدار عضد الدين فساءت العلاقات بينهما وقتل ابن البلدي بعد وفاة الخليفة المستنجد بالله في ربيع الآخر ٥٦٦ هـ/ ١١٧١م. ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٩٨، ١٠٩.

(٤) محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء: تولى الأستاذدارية خلفا لوالده بعد وفاته في عام ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤ م، وظل متولي بها حتى وفاة الخليفة المستنجد بالله عام ٥٦٦ هـ/ ١١٧١ م، وتطورت أحواله بعد ذلك، وتوفي عام ٥٧٣ هـ/ ١١٧٨ م. ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٠، ص ١٥٩، ٢٨٠.

(٥) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية (دار صادر بيروت)، ص ٣١٦؛ الذهبي: المصدر السابق، ج ٣٩، ص ٢٦٠؛ ابن الفرات: المصدر السابق، ج ٤، ص ١١٠، ١١٧.

(٦) قطب الدين قايماز: أصله أرمينيا، وبلغ مكانة عالية حتى صار أكبر أمير ببغداد، وزوج بناته من كبار الأمراء في بغداد، وعمل الخليفة المستنجد بالله على الحد من نفوذه وصادر الكثير من أمواله في رمضان عام ٥٦٤ هـ/

أمور الجيش – فأصدر لذلك أوامره بالقبض على ابنه وعلى قايماز[١]، وقيل أيضاً ساءت العلاقة بين الخليفة وابنه بسبب الصراع بينهما على الجارية "بنفشا"[٢] وقيام ابنه بمعاشرتها وكان والده يريدها، فغضب لذلك المستنجد بالله وقرر قتله، وكلف الأمير أتامش بذلك، فحاول ابنه الهرب فلم يتمكن، وقبض عليه وأرسل إلى الأمير أتامش وحاجب الباب[٣].

عندئذ اجتمع العديد من كبار رجال الدولة الكارهين لعهد المستنجد بالله وقاموا بمساومة ابنه أبي محمد الحسن بين تنفيذ أمر والده بقتله، وبين إنقاذ حياته في مقابل منحه لهم العديد من الامتيازات عند ولايته الخلافة بعد والده، وهنا ظهر دور حاجب الباب مجد الدين بن الصاحب، فكان حاضرا تلك المساومة وهو أول من بدأ الحديث معه، وهو أمر لا نستبعده خاصة بعد العقوبات التي نزلت به في آخر عهد المستنجد بالله، وقد أوضح ذلك ابن الفرات بقوله: "فلما أحضروا أبا محمد الحسن ... قال قطب الدين أتامش لحاجب الباب بلغه الرسالة" – أي رسالة الخليفة بقتله – فحاول إنقاذ حياته في مقابل منحهم ما يريدون، فقالوا له: "فما تفعل معنا إن خلصناك؟" فوعدهم بترقيتهم ومنحهم العديد من الامتيازات[٤].

ولهذا دبر بعض كبار رجال الدولة[٥] مؤامرة للتخلص من الخليفة المستنجد بالله أثناء مرضه، ولا نستبعد أن يكون من بينهم مجد الدين بن الصاحب، واتبعوا أسلوبا يظهر أن وفاته نتيجة حادث، وساندهم طبيبه ووصف لهم ادخاله الحمام وإغلاقه عليه فيختنق من شدة الحرارة، فنفذوا ما قاله، وتوفي الخليفة المستنجد بالله في شهر ربيع الآخر عام ٥٦٦ هـ/ ١١٧١م[٦]، وأخرجوا ابنه أبا محمد الحسن من السجن وولوه الخلافة[١]، ولقب بالمستضيء

١١٦٩ م، ولهذا كرهه وعمل على التخلص منه. ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٠، ص ٢٢٧؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٠٨؛ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء (ضبطه محمد باسل، دار الكتب العلمية بيروت ط الأولى ١٩٩٨م)، ص ٣١٩.

(١) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٨٤ – ٢٨٥.

(٢) بنفشا بنت عبد الله الرومية: كانت من خواص الخليفة المستضيء بأمر الله (٥٦٦ – ٥٧٥ هـ/ ١١٧١ – ١١٨٠ م) ولها مكانة كبيرة لديه، واشتهر عنها اهتمامها بأعمال الخير والبر والصدقة، وقامت ببناء العديد من المدارس والقناطر والجسور، وتوفيت في عام ٥٩٨ هـ/ ١٢٠٢. للمزيد انظر. ابن الساعي: نساء الخلفاء (تحقيق د مصطفي جواد، دار المعارف، ذخائر العرب ٢٨، الطبعة الثانية)، ص ١١١ – ١١٤.

(٣) ابن الفرات: المصدر السابق، ج ٤، ص ١١٦ – ١١٧.

(٤) تاريخ ابن الفرات، ص ١١٧.

(٥) منهم: أستاذ الدار عضد الدين بن رئيس الرؤساء، وقطب الدين قايماز وأتامش ويزدن وقايماز الحميدي. ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٠٨.

(٦) ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة (تحقيق د مصطفي عصام وآخرون، ط الأولى، ١٩٩٩ م الأردن)، ج ٢، ص ٤٥٥؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٠٨ – ١٠٩؛ ابن دحية: النبراس (تحقيق مديحة الشرقاوي،

بأمر الله (٥٦٦ – ٥٧٥هـ/ ١١٧١ – ١١٨٠م)، ونفذ وعوده ومنح العديد من كبار رجال الدولة امتيازات كثيرة[٢].

لم توضح المصادر حظ مجد الدين بن الصاحب من وعود الخليفة المستضيء بأمر الله، واتضح من الأحداث بعد ذلك أن علاقتهما كانت جيدة دل عليها استمراره في وظيفة حاجب الباب لمدة خمسة أعوام (٥٦٦ – ٥٧١هـ/ ١١٧١ – ١١٧٦م)، وظهر أنه استعاد مكانته، مما يؤكد إلغاء عقوبة الخليفة المستنجد بالله له، ثم رقاه الخليفة المستضيء إلى وظيفة أستاذ الدار في عام ٥٧١ هـ/ ١١٧٦ م مما يؤكد أن مجد الدين بن الصاحب كان أحسن حالا في عهد المستضيء بأمر الله بل ويعتبر عهده نقلة هامة في تاريخه كما سنوضح.

خلال فترة عمل مجد الدين في حجابة باب النوبي لاحظنا اهتمامه هو وبعض رجال الدولة بحضور المجالس الدينية السُنية خاصة عند افتتاح المدارس الجديدة منها، مما يشير إلى أنه كان له أيضاً دور علمي ديني، يهدف منه – في رأينا – تشجيع الناس على حضور مجالس العلم، فحضر درسا في جمادى الآخرة عام ٥٦٦ هـ/ ١١٧١ م في المدرسة التي سلمت إلى الواعظ محمد البروي والذي اشتهر بكراهيته للمذهب الحنبلي[٣]، وحضر مع حاجب الباب مجموعة من رجال الدولة[٤]، كما حضر أيضاً درسا لابن الجوزي في شهر شعبان عام ٥٧٠ هـ/ ١١٧٥م في المدرسة التي تسلمها ابن الجوزي من بنفشا جارية المستضيء بأمر الله والتي أوقفتها لتدريس المذهب الحنبلي، وحضر معه قاضي القضاة

مكتبة الثقافة الدينة القاهرة ط الأولى ٢٠٠١)، ص ١٤٦؛ سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٨٥؛ ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ٣١٩؛ ابن الطقطقي: المصدر السابق، ص ٣١٦ – ٣١٨؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٩، ص ٢٦٠؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٢٦٢؛ ابن الفرات: المصدر السابق، ج ٤، ص ١١٧ – ١١٨.

(١) ابن الطقطقي: المصدر السابق، ص ٣١٩.

(٢) رقي أستاذ الدار عضد الدين بن رئيس الرؤساء إلى وزير، وحصل علي إقطاع الوزير السابق ابن هبيرة وكان يقارب مائة ألف دينار، وعين ابنه كمال الدين أستاذ الدار، وعين قطب الدين قايماز قائدا للجيش وأقطع مدينة الحلة ولقب ملك العرب، وأقطع أتامش واسط. ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٠٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب (تحقيق د جمال الدين الشيال، جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣م)، ج١، ص١٩٤، ١٩٦.

(٣) محمد بن محمد بن محمد أبو المظفر: كان أشعريا، عمل بالوعظ في المدرسة النظامية وساءت علاقته بالحنابلة وقيل إنهم دبروا قتله في رمضان عام ٥٦٧ هـ/ ١١٧٢ م. ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٠، ص ٢٣٩؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨، ص ٢٩٢.

(٤) قاضي القضاة وشيخ الشيوخ ومدرس المدرسة النظامية وكاتب الإنشاء. ابن الجوزي: المنتظم، ج١٠، ص٢٣٤ – ٢٣٥.

وفقهاء بغداد علي اختلاف مذاهبهم[١]، وكما رأينا حضر حاجب الباب مجد الدين بن الصاحب دروسا دينية لمذاهب سُنية ليست كلها حنبلية المذهب، ويرى البعض لذلك أنه يعتنق المذهب السني الحنبلي.

ولهذا اعتبر د/ مصطفي جواد حضور أبي القاسم علي- والد مجد الدين بن الصاحب- مجلس الفقيه الحنبلي "عبد القادر الجيلي"[٢] دليلا على اعتناق الأسرة للمذهب السني الحنبلي، ويهمنا أن نوضح هذا الموضوع لأنه يتعلق بعقيدة أسرة ابن الصاحب، وكان د مصطفي جواد قد اعتمد في رأيه هذا على مصدر بهجة الأسرار للشطنوفي[٣].

وهذا المصدر قوبل بنقد بعض المؤرخين، فشكك "ابن رجب" في مصادر أسانيده فقال: "لا يطيب لي أن أعتمد على شيء من الكتاب لكثرة ما فيه من الرواية عن المجهولين ... ولا يليق نسبة مثل ذلك إلى الشيخ عبد القادر"، وأكد ذلك "ابن حجر العسقلاني" فقال: "طعن الناس في كثير من حكاياته، ومن أسانيده فيها"[٤].

ولهذا لا نستغرب عند دراسة روايته الأولى عن والد مجد الدين بن الصاحب أنه اعتمد فيها على الرواية الشفوية لأكثر من قرن، فأول إسناده في عام ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩ م، ثم وصل إلى شيخ يسرد رواية في رجب عام ٥٩٣ هـ/ ١١٩٧م، ويتذكر في ذلك العام أحداثا من أكثر من ثلاثين سنة حدثت في مجلس عبد القادر الجيلي قبل وفاته في عام ٥٦١هـ/ ١١٦٦م، حيث شهد هذا المجلس كرامة للشيخ عبد القادر، وهي تحقيق أمنيات بعض الحضور، ومن هؤلاء الذين تحققت أمنياتهم ثلاثة تمنوا مناصب في الخلافة وهم: أبو عبد الله محمد بن الوزير بن هبيرة تمني نيابة الوزارة، والثاني أبو الفتوح عبد الله بن هبة الله أراد

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٠، ص ٢٥٢ – ٢٥٣؛ شذور العقود (تحقيق أبي الهيثم الشهباني، مركز نجيبويه ط الأولى ٢٠٠٧ القاهرة)، ص ٣٠٩.

(٢) عبد القادر بن أبي صالح أبو محمد الجيلي: عالم جليل، ولد عام ٤٧٠ هـ/ ١٠٧٦م بجيلان ثم انتقل للدراسة في بغداد في عام ٤٨٨ هـ/ ١٠٩٥ م وتفقه على شيوخها، ثم سلمت إليه مدرسة وقام بالوعظ بها، وتاب على يديه الكثير، واشتهر عنه زهده وورعه، توفي في عام ٥٦١ هـ/ ١١٦٦ م، ودفن بمدرسته. للمزيد انظر. ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٠، ص ٢١٩؛ ابن رجب: الذيل علي طبقات الحنابلة (تحقيق د عبد الرحمن بن سليمان، مكتبة العبيكان الرياض، الطبعة الأولى ٢٠٠٥)، ج ٢، ص ١٨٧ – ٢١١.

(٣) المنذري: المصدر السابق، ج ١، المقدمة، ص ١٦، هامش ٣.

(٤) ابن رجب: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٩٤؛ ابن حجر: الدرر الكامنة (دار إحياء التراث العربي بيروت)، ج٣، ص ١٤٢.

وظيفة أستاذ دار، أما الثالث فهو أبو القاسم علي بن الصاحب الذي تمنى أن يكون حاجبا للباب[١].

ورواية الشطنوفي صحيحة من حيث ولايتهم تلك المناصب، ولكن اذا نظرنا إلى تواريخ ولايتهم نجد أنهم لم يجتمعوا معا، فكيف تتحقق أمنياتهم معا؟

فأبو الفتوح عبد الله بن هبة الله تولى وظيفة أستاذ دار منذ عام ٥٣٥ هـ/ ١١٤٠ م حتي وفاته في عام ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤ م[٢]، وبعد وفاته بعام ولي أبو القاسم علي حاجبا للباب في عام ٥٥٠ هـ/ ١١٥٥م حتى وفاته عام ٥٦٤ هـ /١١٦٩ م كما أوضحنا من قبل، أما أبو عبد الله محمد بن الوزير بن هبيرة فعمل والده وزيرا منذ عام ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩ م حتى وفاته عام ٥٦٠ هـ/ ١١٦٥ م، وأناب ابنه في الوزارة في حياة والده[٣]، وقيل ناب أيضاً بعد وفاة والده[٤].

كما أكد الشطنوفي في رواية ثانية اجتماع هؤلاء الثلاثة في مجلس الشيخ عبد القادر بعد ولايتهم مناصبهم وذكرهم بألقابهم الوظيفية، وأنهم انفرطوا في بكاء شديد بين يدي الشيخ[٥]، في تأكيد جديد لهدفه من تأليف الكتاب وهو إثبات قوة الشيخ ومكانته وكراماته التي تذل أمامها كبرى المناصب في الخلافة العباسية بترتيب مكانتها: الوزارة وأستاذ الدار وحجابة الباب دون تأكيد صحة ذلك.

ولهذا لا يعد – في رأينا – حضور أسرة ابن الصاحب للمجالس الدينية السنية دليلا للحكم علي عقيدتهم، خاصة إذا علمنا أن الأسرة كانت تعتنق المذهب الشيعي يتوارثونه أبا عن جد[٦]، ودفنت زوجة مجد الدين بن الصاحب ووالده في مقابر الشيعة[٧]، وكان لمجد الدين دور هام بعد ذلك في تقوية المذهب الشيعي على حساب المذهب السني، وهو ما سنوضحه خلال الدراسة.

---

(١) الشطنوفي: بهجة الأسرار (مخطوط محفوظ بدار الكتب القومية رقم ٣٣ تاريخ)، ورقة ٣٤ – ٣٥.

(٢) ابن الدبيثي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٢٧؛ الصفدي: المصدر السابق، ج ١٧، ص ٣٥٤.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٠، ص ١٣٧، ٢١٤؛ عماد الدين الأصفهاني: خريدة القصر (تحقيق محمد بهجة الأثري، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٥ م)، ج ١، ص ١٠٠؛ سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج٨، ص ٢٦٧.

(٤) ابن الطقطقي: المصدر السابق، ص ٣١٦.

(٥) الشطنوفي: المصدر السابق، ورقة ١٠٢.

(٦) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ١٤٦.

(٧) دفنوا في قبر الإمام موسى بن جعفر الصادق أحد أئمة الشيعة المعروفين. ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ٢٠٠؛ ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج ٤، ص ٥٥٨.

ولاية مجد الدين بن الصاحب منصب أستاذ دار

أولا: في عهد الخليفة المستضيء بأمر الله (٥٧١ – ٥٧٥ هـ/ ١١٧٦ – ١١٨٠ م)

لأول مرة في تاريخ أسرة ابن الصاحب يرقى أحدهم إلى أستاذ الدار[١]، وهذه نقلة هامة في تاريخ مجد الدين علت بها مكانته من حفظ الأمن خارج دار الخلافة إلى أن يكون مسئولا عن دار الخلافة جميعها، واختاره الخليفة لهذا المنصب في صفر عام ٥٧١هـ/ ١١٧٦م[٢]، وتعكس هذه الترقية – في رأينا – العلاقة الوطيدة بين مجد الدين والخليفة المستضيء بأمر الله (٥٦٦– ٥٧٥ هـ/ ١١٧١– ١١٨٠ م)، ونجاحه في كسب ثقته ليختاره قريبا منه في دار الخلافة، وهذا المنصب يلي الوزارة من حيث المكانة[٣] ويأتي بعده في الأهمية حاجب باب النوبي، ويكون أستاذ الدار قريبا من الخليفة مسئولا عن شئون دار الخلافة ونفقاتها وأمور الأسرة العباسية جميعها[٤].

---

(١) أستاذ الدار: من وظائف أرباب السيوف، وهي فارسية اللفظ، ومعناها ممسك مال السلطان أوالأمير وصرفه حسب أوامره، وتكتب أحيانا (إستدار) بكسر الهمزة. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٧.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٠، ص ٢٥٦؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٣٨؛ ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج ٥، ص ٩٣؛ الأربلي: خلاصة الذهب، ص ٢٨٠؛ ابن الفوطي: مجمع الآداب، ج ٤، ص ٥٤٦؛ النويري: نهاية الأرب (تحقيق د أحمد كمال زكي، الهيئة االمصرية العامة للكتاب ١٩٨٠)، ج ٢٣، ص ٣٠٦؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤١، ص ١٦٧؛ الصفدي: الوافي، ج ٢٧، ص ١٧٨.

(٣) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ٣٩.

(٤) مصطفي جواد مقدمة تحقيقه لكتاب ابن الساعي: الجامع المختصر، ج ٩، ص يب.

يتطلب هذا المنصب أن يستعد له ببعض الأسلحة والقوات، ربما ليضفي عليه الهيبة عند دخوله دار الخلافة، من ذلك يستعد بـــ " سيف ركاب[١] وجناقات[٢] وآلة تصلح لأستاذية الدار، وبعض الغلمان للعمل سلاح دار[٣]"[٤].

ظل مجد الدين بن الصاحب أستاذا لدار الخليفة المستضيء بأمر الله حتى وفاة الخليفة في آخر شوال وقيل في أول ذي القعدة عام ٥٧٥ هـــ/ ١١٨٠ م[٥]، وليس لدينا ما يوضح أعماله في دار الخلافة، فلم تهتم كثير من المصادر به خلال فترة المستضيء بأمر الله، ومن الواضح أنه قام بعمله المعتاد.

لاحظنا أن منصب مجد الدين كان مهددا في ذلك الوقت بسبب الصراع في دار الخلافة حول ولاية العهد، بين ابني الخليفة أبي منصور هاشم وأبي العباس أحمد، وانحاز البعض إلى أبى منصور هاشم، وقاد هذا الفريق ابن العطار[٦] صاحب المخزن ونائب الوزارة[٧]، خاصة بعد أن كشف الخليفة عن مؤامرة بين ابنه أبي العباس وأستاذ داره عماد الدين صندل[٨]، فعزله وقبض عليه وعين مجد الدين بن الصاحب بدلا منه، و" ضيق " على ابنه أبى العباس أحمد[٩].

ومع أن مجد الدين عاصر رد فعل الخليفة تجاه من يتآمر مع ابنه أبي العباس فإنه كان يؤيده وكذلك بنفشا جارية المستضيء بأمر الله[١٠]، ونعتقد أنه كان يؤيده سرا خوفا على

---

(١) يحمله الركابية في المواكب حول الخليفة. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٧٣.

(٢) الجـــُنـــُق: الحجارة التي تستخدم في المنجنيق. ابن منظور: لسان العرب، ج ٢، ص٣٨٥.

(٣) سلاح دار: وتعني ممسك السلاح، وهو الذي يحمل سلاح السلطان، ويتولى أمر السلاح خاناه. القلقشندي: صـــبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٦٢.

(٤) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ١١٣.

(٥) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٤٨؛ ابن الدبيثي: المصدر الســـابق، ج ٥، ص ٩٣؛ الـــذهبي: ســـير أعلام، ج ١٥، ص ٣٦٩؛ ابن كثير: البداية، ج ١٢، ص ٣٠٤.

(٦) سنلقي المزيد من التفاصيل عنه عند الحديث عن دور مجد الدين في تقوية المذهب الشيعي.

(٧) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨، ص ٣٥٥، ٣٧٣.

(٨) صندل بن عبد الله الحبشي أبو الفضل الخادم: مولي الخليفة المقتفي بالله، وصارأحد الخدم الكبار فـــي الخلافـــة، والخدم – كما يذكر السمعاني – تطلق علي الخصيان في دور الملوك، واهتم الخليفة الناصر به لمساندته له، وتـــوفي عماد الدين عام ٥٩٣ هـــ/ ١١٩٧ م. السمعاني: الأنساب، ج ٥، ص ١٠؛ ابن الدبيثي: ذيل مدينـــة الســـلام، ج ٣، ص ٤١٦.

(٩) ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٢٥٦؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤٠، ص٥.

(١٠) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ٨، ص ٣٥٥، ٥١١؛ الذهبي: تاريخ الإســـلام، ج ٤٥، ص٨٤؛ ســـير أعلام، ج ١٦، ص ١٨١.

منصبه، ويؤكد ذلك أن بعض الموالين للأمير أحمد كانوا أيضاً يعملون في سرية تامة حتي أن بعضهم كان يتخفى في ملابس النساء ليعلنوا تأييدهم للأمير[١]، ثم قرر الخليفة المستضيء – بسبب مرضه– اختيار ابنه أبي العباس أحمد وليا للعهد، وأعلن ذلك قبل وفاته بأيام قلائل[٢]، وبعد وفاته تولى الأمير أحمد الخلافة ولقب بالناصر لدين الله، وأعلن عن أسماء فريقه وميز كل من ساندوه[٣]، وانتقم من الفريق الآخر الذي كان يناصر أخاه[٤].

ثانيا: ولاية مجد الدين بن الصاحب منصب أستاذ دار

في عهد الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ – ٥٨٣ هـ/ ١١٨٠ – ١١٨٧م)

تولى الخليفة الناصر لدين الله الخلافة العباسية بعد وفاة والده في أول شهر ذي القعدة عام ٥٧٥ هـ/ ١١٨٠ م، وهو في الثانية والعشرين من عمره[٥]، وكان لمجد الدين بن الصاحب من الخبرة[٦] التي جعلته ناجحا دائما في كسب رضاء الخليفة الناصر لدين الله، ولهذا حظى بثقته منذ أول يوم في خلافته، ونال مكانة كبيرة لديه تخطت حدود سلطة أستاذ الدار، ويرجع هذا لماضي العلاقات القوية بينهما منذ عهد الخليفة المستضيء بأمر الله، ولهذا ميزه الخليفة الناصر مثل بقية فريقه، ونال مكانة أكبر تعكس حجم دوره معه .

---

(١) أهمهم طغرل الخاص أكبر مملوك رومي، وكان يجمع الأمراء ويحلفون على ولائهم للأمير أحمد فأقطعه الخليفة البصرة بعد ولايته. ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ١٤٤

(٢) خطب له يوم ٢٢ شوال، وقيل قبل وفاة والده بيوم. أبو شامة: الروضتين (تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت ط الأولى ٢٠٠٢)، ج ٣، ص ٣٥؛ ابن كثير: البداية، ج ١٢، ص ٣٠٤ – ٣٠٥.

(٣) اهتم الناصر ببنفشا جارية والده واسكنها دار والدته، وميز كل الأمراء الذين أيدوه، فأقطع آل تنبه الشطرنجي واسط، وولى قيطرمش شحنة بغداد. ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ٤٠ – ٤١؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨، ص ٣٥٥، ٥١١.

(٤) قتل الخليفة ابن العطار بعد أيام قلائل من خلافته، أما أخوه فقد كان محبوسا عند وفاته عام ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ م، وقبض على بعض المماليك منهم سنقر الصغير وغرغلي. ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ١١٧– ١١٨؛ الأربلي: خلاصة الذهب، ص ٢٧٩.

(٥) ولد الخليفة الناصر لدين الله في شهر رجب عام ٥٥٣ هـ/ ١١٥٨ م. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨، ص ٦٣٥؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤٥، ص ٨٤؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء (المكتبة التجارية الكبري، القاهرة، الطبعة الرابعة ١٩٦٩)، ص ٤٤٨.

(٦) ولد مجد الدين بن الصاحب في عام ٥٤٢ هـ/ ١١٤٧ م، وكان يكبر الخليفة بنحو أحد عشر عام، واكتسب خبرة لعمله منذ عام ٥٦٤ هـ/ ١١٦٩ م. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٢١، ص ٣٥٢؛ الذهبي: العبر، ج ٣، ص ٨٧؛ تاريخ الإسلام، ج ٤١، ص ١٦٨

حرص مجد الدين على استمرارعلاقته القوية مع الخليفة، ولهذا نراه أكثر قربا منه بعد خلافته، مهتما بكل أموره، وكان أولها اهتمامه بعقد البيعة له بنفسه[١]، وقيل شاركه فيها من الفريق المؤيد للناصر عماد الدين صندل[٢]، وقيل أيضاً شاركه ابن العطار– صاحب المخزن ونائب الوزارة في عهد والده[٣]– لخوفه من الناصر لتزعمه الفريق المناهض له[٤]، وبعد إتمام البيعة أظهر مجد الدين سعادته، وأسرع بمبايعة الخليفة فكان أول من بايعه بعد أسرته[٥].

ثم عقد الخليفة الناصر لدين الله اجتماعا لاختيار وزير له، حضره من المقربين له مجد الدين بن الصاحب وصندل الخادم، كما حضره "فخر الدولة بن المطلب"[٦] أحد الأعيان المشهورين وكان ذا رأي سديد ويؤخذ بمشورته[٧].

ظهر في هذا الاجتماع جانب مهم من سياسة ابن الصاحب مع الخليفة والتي كان يتبعها دائما معه لكسب رضائه، وليمنحه المزيد من السلطة والنفوذ.

حيث اقترح فخر الدولة بن المطلب اختيار أستاذ الدار لمنصب الوزارة باعتباره: "أصلح" من يليها في رأيه، فرفض ابن الصاحب اقتراحه وأظهر ضيقه: "من قول فخر الدولة ولم يعجبه ذلك، فقال له أمير المؤمنين لم لا يرضيك قوله وهي أرفع درجة؟ فقال: يا أمير المؤمنين لا أبيع حضوري في هذه الخدمة بالدنيا وما فيها، وسأل أن يقر علي خدمته – وهي أستاذية الدار فأقره على ذلك"[٨].

هكذا رفض ابن الصاحب منصب الوزارة على الرغم من علو مكانتها عن منصبه، وأظهر للخليفة أنه يفضل بقاءه بجانبه، ولم يكن هذا هو السبب الحقيقي لرفضه، وانما كان يهدف – في رأينا – الجمع بين سلطتي الوزارة وأستاذ الدار كما سنوضح، وكان هذا جانبا من أسلوبه يظهر عكس ما يبطن ليكسب ثقة الخليفة

---

(١) ابن الدبيثي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣٢.

(٢) ابن الكازروني: المصدر السابق، ص ٢٤٣؛ الأربلي: المصدر السابق، ص ٢٨٠

(٣) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ٣١؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص ٩٠

(٤) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ٨، ص ٣٥٥.

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤٠، ص ٣٦.

(٦) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ٣٩.

(٧) كان فخر الدولة من أسرة مشهورة، فوالده كان وزيرا للخليفة المستظهر بالله، وتولى أخوه الأستاذ دارية، وابتعد فخر الدولة عن المناصب، وتصوف واهتم بأعمال الخير. توفي في عام ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ م. ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ١٥٦؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٦٠؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨، ص٣٧١ – ٣٧٢.

(٨) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ٣٩.

آتت سياسته ثمارها، وأقره الناصر و: "قربه تقريبا زائدا"[١]، ثم: "برز الأمر الشريف ببسط يد مجد الدين بن الصاحب وحـُكم في الدولة ونفذت أوامره في جميع أرباب الدولة"[٢]، و: "رد إليه النظر في أكثر الأمور فعلت منزلته"[٣] وبلغت مكانته أنه كان يُدعى له على المنابر بعد الدعاء للخليفة[٤].

لخصت بعض المصادر المكانة الرفيعة التي بلغها أستاذ الدار ابن الصاحب في عهد الخليفة الناصر بقولهم: "كان متحكما في الدولة ليس للخليفة معه حكم"[٥]، و"تمكن المجد بن الصاحب فوق الحد وطغا"[٦]، "وصار يولي ويعزل"[٧]، "وبلغ من الرتب رتبة الوزير وأبلغ"[٨].

ظل ابن الصاحب محتفظا بمكانته عدة سنوات، وكان حريصا على استمرار علاقته القوية مع الخليفة، كذلك اهتم به الناصر كثيرا، ووضعه كثيرا في مكانة أعلى من مكانة أستاذ الدار، من ذلك أثناء انتقال الناصر بعد أشهر قلائل من خلافته في شهر ربيع الأول عام ٥٧٦ هـ/ ١١٨٠ م[٩] للإقامة عدة أيام في "كشك الملكية"[١٠] خارج دار الخلافة كعادة آبائه[١١]، ومعه بعض أرباب الدولة وكان الخلفاء يهتمون في ذلك الوقت بالخروج للصيد، كما كانوا يحرصون على أداء صلاة الجمعة في جامع الرصافة، ثم يعودون إلى دار الخلافة[١٢].

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٢١، ص ٣٥٢.

(٢) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ٣٦.

(٣) ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج ٥، ص ٩٣ – ٩٤.

(٤) ابن جبير: المصدر السابق، ص ٢٠٣.

(٥) العماد: سنا البرق، ص ١٧٤؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٨٩.

(٦) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤٥، ص ٨٤.

(٧) ابن الفوطي: مجمع الآداب، ج ٤، ص ٥٤٦؛ الذهبي: سير أعلام، ج ١٥، ص ٣٦٩.

(٨) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤١، ص ١٦٧؛ الصفدي: الوافي، ج ٢٧، ص ١٧٨.

(٩) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ٦٥.

(١٠) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ٦٦؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤٠، ص ٤٢.

(١١) أمر الخليفة المستنجد بالله ببناء كشك في عام ٥٥٨ هـ/ ١١٦٣م في الجانب الشرقي من بغداد في منطقة الحُطيمة، وخرج للإقامة به عام ٥٦١ هـ /١١٦٦ م، ولما تولي ابنه المستضيء بأمر الله في عام ٥٦٦هـ/ ١١٧١م أمر بهدمه لحاجته إلى ترميم سور دار الخلافة، ثم بني كشكا آخر في عام ٥٧١ هـ/ ١١٧٥م، وخرج للإقامة به في ذي القعدة من نفس العام، كما انتقل إليه مرة أخرى في عام ٥٧٢ هـ/ ١١٧٦ م؛ ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٠، ص ٢٠٥، ٢١٨، ٢٣٥، ٢٥٧، ٢٦٣.

(١٢) ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٢٠٥، ٢١٨، ٢٥٩، ٢٦٣؛ ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ٦٦؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤٠، ص ٧، ٣٩، ٤٢.

ميز الخليفة الناصر أستاذ داره طوال فترة وجوده معه عن نائب الوزارة – علي الرغم من علو منصبه – في كثير من المواقف منها مراسم ترتيب الركوب في المواكب، فكان دائما ابن الصاحب يلي الخليفة ويقف على يمينه، ويسمح له فقط بالدخول معه إلى الكشك بينما يدخل سائر أرباب الدولة في اليوم التالي، كما انفرد ابن الصاحب بالخروج معه للصيد(١). كما ميزه أيضاً الخليفة بالخلع التي قدمها إليه، فمنحه خلعا تقدم للوزراء، مما جعل الحضور يتوقعون ترقية ابن الصاحب إلى منصب الوزير، ولكنه ظل كما هو على منصبه(٢).

اهتم ابن الصاحب بشئون الأسرة العباسية وببناء العديد من الدور الجديدة باعتبارها أساس وظيفته، وأشرف بنفسه على بنائها من خلال ديوان الأبنية(٣).

لم يكتف ابن الصاحب بمهام عمله وتدخل في كل أمور الخلافة، وفيما يلي نوضح بعض مظاهر تحكمه منذ أن أقره الخليفة الناصر لدين الله في منصبه في شهر ذي القعدة عام ٥٧٥ هـ/ ١١٨٠ م، حتى مقتله في شهر ربيع الأول عام ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م من خلال عرض سيطرته على كبرى المناصب الإدارية في الدولة (الوزارة – الديوان – حاجب الباب)، ودوره في تقوية المذهب الشيعي على حساب السنة في العراق، وعلاقته ببعض كبار الخدم والأمراء والأعيان، وأحد المقربين من الخليفة، ثم نختتم البحث بدراسة تطور علاقة الخليفة الناصر بابن الصاحب وتدرجها من القوة إلي الضعف، حتى أصدر الخليفة قراره بقتله.

ابن الصاحب وتحكمه في كبرى المناصب الإدارية

(٥٧٥ – ٥٨٣ هـ/ ١١٨٠ – ١١٨٧م)

أحكم ابن الصاحب قبضته على النظام الإداري، فمن التلزم طاعته ونفذ أوامره أبقى عليه، ومن خالفه الرأي عزله، وتضح ملامح تحكمه في بعض المناصب الكبرى في الخلافة في الوزارة والديوان وحاجب باب النوبي.

الوزارة :

أعلى المناصب الإدارية، وكان الخليفة الناصر قد عقد اجتماعا مع ابن الصاحب وصندل الخادم وفخر الدولة بن المطلب لاختيار وزير، وعرض المنصب أولا على فخر الدولة

---

(١) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ٦٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٢.

(٣) أشرف ابن الصاحب على بناء مدفن للخليفة المستضيء بأمر الله حيث أوصى الخليفة بدفنه بالجانب الغربي من بغداد، هذا بالإضافة إلى العديد من الدور التي أشرف على بنائها. ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ٨٣ – ٨٤، ١١٨، ٢٠١ – ٢٠٢، ٢٠٥ –٢٠٦.

فرفضه لكبر سنه، ثم رشح له ابن الصاحب فرفضه – كما أوضحنا من قبل – واكتفى بوظيفة أستاذ دار[١]، فرشح فخر الدولة سليمان بن جاووش[٢]، لمنصب " نائب الوزارة "[٣].

سليمان بن جاووش (٦ ذو القعدة ٥٧٥ – ٦ المحرم ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م)

عين في السادس من ذي القعدة عام ٥٧٥هـ/ ١١٨٠م[٤]، وكان يتمتع بشخصية قوية دل عليها نجاحه في عقد الصلح بين الشيعة في الكرخ والسنة في باب البصرة عام ٥٧٠هـ/ ١١٧٥م، وأوضح ابن الجوزي سبب قبولهم الصلح بقوله: "خافوا سطوته وكفوا"[٥] فضلا عن ذلك كان سليمان بن جاووش رجلا كبيرا وله خبرة بحكم سنه، ولهذا من المتوقع أن لا يقبل تنفيذ أوامر مجد الدين خاصة وهو في سن أبنائه. ولهذا لم يتفق معه بل كرهه ابن الصاحب لأنه كان "يقف في تقدماته"، فقرر عزله بعد شهرين فقط، في السادس من المحرم عام ٥٧٦ هـ/ ١١٨٠م، واجتمع مع الخليفة ليأخذ موافقته على عزله، ولم يقل له الأسباب الحقيقية،

---

(١) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ٣٩ – ٤٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٩١.

(٢) شرف الدين سليمان بن أرسلان أبو داود: اختلف في لقبه بين جاووش وشاووش وساوس تولى النظر بأعمال نهري عيسي وملك، ثم تولى نيابة الوزارة، كان حافظا للقرآن كثير التلاوة، وتوفي في شهر جمادى الأولى عام ٥٧٧هـ/١١٨١م. ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج ٣، ص ٣٥٤– ٣٥٥؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٠، ص ٢٣٨؛ الصفدي: الوافي، ج ١٥، ص ٢١٧ – ٢١٨؛ الغساني: المسجد المسبوك (تحقيق د شاكر محمد عبد المنعم، دار البيان، بغداد ١٩٧٥)، ص ٤٠٨ – ٤٠٩.

(٣) نائب الوزارة: منصب ظهر في العصر العباسي الثاني، وقد بحثنا عن الفرق بينه وبين منصب الوزير في كثير من المصادر دون جدوى، ولهذا قمنا بدراسته خلال زمن البحث في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وظهر لنا أن الخلفاء لجأوا إلى تعيين نائب وزارة بعد وفاة أو عزل الوزير السابق، ويعين من بين كبار الموظفين مثل صاحب المخزن منهم ابن جعفر (٥٦٧– ٥٧٠هـ) وابن العطار (٥٧٣– ٥٧٥ ه) و صاحب الديوان ومنهم أبو الرضا بن صدقة (٥٢٩– ٥٣٠هـ) وقاضي القضاة ومنهم الزينبي (٥٣٤– ٥٣٥ هـ) وأبو البركات جعفر بن الثقفي (٥٦٠– ٥٦٣هـ) ونقيب النقباء ومنهم أبو القاسم علي بن طراد (٥٢٢ – ٥٢٣هـ) وأبو أحمد طلحة بن علي الزينبي (٥٤٣ – ٥٤٤هـ)، وكاتب الإنشاء ابن الأنباري (٥٧٠هـ)، وفي عام ٥٠١ هـ استعانوا باثنين في وقت واحد قاضي القضاة ونقيب النقباء، وكان يضاف إلى وظيفته الوزارة ولهذا سمي نائب وزارة، ويقوم بها إلى حين تعيين وزير خلال عام أو أكثر، واستمر ذلك حتى وفاة المستضيء بأمر الله في عام ٥٧٥هـ/ ١١٨٠م، وفي عهد الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥– ٦٢٢هـ/ ١١٨٠– ١٢٢٥م)، لم يكن اختيار النائب على هذا الأساس، وكان نواب الوزارة متفرغين للوزارة ولا يعملون بوظائف أخرى، ولم يعين طوال تاريخه الطويل سوى أربع وزراء، بينما عين اثني عشر نائبا أولهم سليمان بن جاووش، وآخرهم القمي الذي استمر خمسة عشرعاما. ابن الجوزي: المنتظم، ج٩، ص١٥٧، ج ١٠، ص ٨– ٩، ٥٠ – ٥١، ٨٥، ١١٩، ١٣٢، ٢٢٢، ٢٣٨، ٢٥٦، ٢٧٥؛ الأربلي: خلاصة الذهب، ص ٢٧٨ – ٢٨٠؛ الغساني: المسجد المسبوك، ص٤٠٨ – ٤٠٩.

(٤) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ٤٠؛ ابن الدبيثي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٥٥

(٥) المنتظم، ج ١٠، ص ٢٤٩ – ٢٥٠.

وإنما تعلل بكبر سن سليمان بن جاووش – وكأنه قد كبر فجأة خلال شهرين – فقال له ابن الصاحب: " إن هذا رجل قد كبر وعجز عن تدبير للدولة "، فوافق الخليفة علي عزله، ومنح مجد الدين سلطة أن "يستبدل به من يشاء"(١). وهكذا صار منصب الوزارة منذ ذلك الوقت بين يدي مجد الدين بن الصاحب يولي من يوافقه ويعمل تحت تصرفه، ويعزل من يقف أمامه.

ابن البخاري (المحرم ٥٧٦ – المحرم٥٨٠ هـ/ ١١٨٠ – ١١٨٤ م)

تعد ولاية "هبة الله بن البخاري"(٢) منصب نائب الوزارة أبلغ مثال ودليلا واضحا – في رأينا – على تحكم ابن الصاحب في هذا المنصب، حتى صار هو المتولي الفعلي له خلال فترة ولايته التي استمرت أربع سنوات، ولم يعزله ابن الصاحب وإنما توفي ابن البخاري في المحرم عام ٥٨٠ه/ ١١٨٤م(٣).

وان كان ابن الصاحب لم يتمكن من بسط سيطرته على المنصب أثناء فترة سليمان بن جاووش فأنه نجح نجاحا كبيرا في عهد ابن البخاري وحقق ما تمناه من السلطة والنفوذ، وصار ابن البخاري كالخاتم في إصبعه ينفذ كل أوامره.

فكر ابن الصاحب في اختيار ابن البخاري قبل عزل سليمان بن جاووش، وقد انفرد ابن شاهنشاه بتوضيح مفاوضاته مع ابن البخاري، فأوضح أنه ادخله سرا إلى دار الخلافة، واستمرت المفاوضات بينهما ثلاثة أيام حتى اطمأن إليه، فقرر عزل سليمان بن جاووش، وتولية ابن البخاري، وقد لخص ابن شاهنشاه طبيعة علاقته بابن الصاحب بقوله: "كان لا يخرج عن أوامر أستاذ الدار ولا ينفرد بأمر دونه"(٤).

وصار ابن البخاري كالمحجور عليه، وأصبح يد ابن الصاحب التي استخدمها لإبعاد الكثير من خصومه، وأفقده ابن الصاحب مكانته في المراسم الخاصة بالمواكب الرسمية، فكان هو دائما بجانب الخليفة وابن البخاري يليه، وقد اعترض ابن شاهنشاه في جنازة فخر الدولة بن المطلب في عام ٥٧٨ هـ/ ١١٨٣ م فقال: "وكان أستاذ الدار واقفا فوقا من النائب، وهذه

---

(١) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ٤٠، ٦٥؛ ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج ٣، ص ٣٥٥؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤٠، ص ٢٣٨؛ الصفدي: الوافي، ج ١٥، ص٢١٨

(٢) هبة الله بن محمد بن هبة الله أبو المظفر الكاتب: تفقه على مذهب الإمام الشافعي، واشتغل بالكتابة ثم عمل بديوان الزمام تولى النظر والصدرية به حتى عام ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م وولي نيابة الوزارة حتى وفاته في المحرم عام ٥٨٠ هـ/ ١١٨٤ م. ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٠، ص ٢٣٣، ٢٥٠؛ ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج ٥، ص ٩٥؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤٠، ص ٣١٧ – ٣١٨؛ الصفدي: الوافي، ج ٢٧، ص ١٩١.

(٣) ابن الدبيثي: المصدر السابق ،ج ٥، ص ٩٥؛ الذهبي: المصدر السابق، ج٤٠، ص ٣١٨.

(٤) مضمار الحقائق، ص ٦٥.

الحال لم تكن لأحد ممن تقدم من أستاذية الدار أن يترفع علي نائب الوزارة إلا هذا، لكون المذكور كان غلامه واختياره ونائبه"[١].

ظل ابن البخاري على ولائه وطاعته لابن الصاحب حتى وفاته، ومع ذلك كان يشعر بالقهر ويتحين الفرصة لاسترداد مكانته، واشتكى لأحد المقربين من الخليفة الناصر، فتحدث معه بشأنه فقال له: "ليس لك نائب وزارة مثله، ولكن ماله حكم وإنما هو غلام بين يدي أستاذ الدار، ولو كشف عن باطنه رؤي قلبه قد دوّد من شدة ما هو عليه، ولو مكنته كنت ترى العجب"، ولم تنجح هذه الوساطة – في رأينا – لثقة الخليفة الكبيرة في ذلك الوقت في أستاذ داره، الذي علم بهذا الحديث من خلال جواسيسه، وبدأ يتغير على ابن البخاري[٢].

لهذا خطط ابن البخاري للقضاء على ابن الصاحب، ولكن القدر لم يمهله، وكان ابن الصاحب يطلب منه التخلص من بعض المستندات التي تدينه، ولا يعلم بها الخليفة، فكان ابن البخاري يبلغه أنه أعدمها، في حين أنه يحتفظ بها لإدانته، وكان حظ ابن الصاحب جيدا حيث وقعت هذه المستندات في يده عند وفاة ابن البخاري وقام بمصادرة أملاكه[٣].

ابن صدقة (١٥ المحرم – ٢٣ ربيع الآخر ٥٨٠ هـ/ ١١٨٥ م)

تمثل فترة نيابة "ابن صدقة"[٤] للوزارة – مع قصرها – مرحلة مهمة في تاريخ تحكم ابن الصاحب في منصب نائب الوزارة من ناحية وفي علاقته بالخليفة الناصر من ناحية أخرى، حيث اختلف ابن صدقة تماما عن ابن البخاري، ولهذا اصطدم مع ابن الصاحب، ورفض أن يكون تابعا له، واشتكاه إلى الخليفة الناصر الذي صدق الشكوى – للمرة الأولى – في أستاذ داره مما يشير إلى بداية اهتزاز ثقته فيه.

وكان ابن الصاحب قد اختار ابن صدقة حاجب باب النوبي ليوليه نيابة الوزارة بعد وفاة ابن البخاري، ونرجح أن اختياره له بسبب وجود علاقة سابقة ومن المتوقع أنه عمل معه قديما وقت عمل ابن الصاحب بحجابة باب النوبي، واختاره ليضمن ولائه له، فاستأذن الخليفة

---

(١) المصدر نفسه، ص١٥٦ – ١٥٧.

(٢) المصدر نفسه، ص١٩٥ – ١٩٦.

(٣) المصدر نفسه، ص٢١٢.

(٤) أبو الفتح صدقة بن أبي الرضا بن صدقة: من بيت مشهور كان والده وزيرا للمسترشد بالله، وتولى ابن صدقة حجابة باب النوبي ثم نيابة الوزارة وتوفي عام ٥٩٧ هـ/ ١٢٠١ م. ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج٣، ص٤٠٥ – ٤٠٦؛ المنذري: التكملة، ج ١، ص ٣٩٠ – ٣٩١؛ ابن الساعي: الجامع المختصر، ج ٩، ص ٦٠ – ٦١ .

في تعيينه نائب وزارة – ومع أن الخليفة قد فوض إليه تعيين من يشاء – فإنه كان حريصا على موافقة الخليفة لاستمرار علاقته القوية معه، فأذن له[١].

عين ابن صدقة في الخامس عشر من المحرم عام ٥٨٠هـ/ ١٨٥ م[٢] وأنهى ابن الصاحب مراسم تعيينه، ثم بدأ في فرض سلطته عليه قائلا له: "لا تعمل شيئا إلا بأمرنا وإن كتبت شيئا اكتبه إلينا"، فوافقه ابن صدقة في البداية بقوله: "السمع والطاعة"، ثم ظهرت ملامح شخصيته القوية، وطلب منحه بعض الامتيازات التي كانت مخصصة لابن البخاري مثل داره وإقطاعه، فوافق ابن الصاحب لظنه أنه سيكون مثل ابن البخاري في ولائه له، والتزم ابن صدقة بطاعته بعض الوقت فكان: "أستاذ الدار ابن الصاحب كل ساعة يتقدم إليه بما يعمل ... وما كان يتجاوز ما يتقدم به إليه"[٣].

ثم بدأت شخصية ابن صدقة القوية في الظهور، وخطط لاستعادة هيبته التي سلبها ابن الصاحب، فقام أولا بتغيير مراسم وصول نائب الوزارة إلى جامع القصر لأداء صلاة الجمعة، وكان النائب قبله يمشي إلى الجامع لقرب المسافة فقال ابن صدقة: "ما أريد أن أمشي ولا أخرج إلا راكبا"، وكان الهدف من ذلك أن يرسل لابن الصاحب أنه يختلف عن النواب قبله، وفهم ابن الصاحب رسالته، فقلق منه وجعل حاجب الحجاب عينا له يبلغه أخباره[٤].

وكشف ابن صدقة مخطط ابن الصاحب للتجسس عليه، وجعل حاجب الحجاب يبلغه فقط بالأخبار التي لا تدينه، ثم تجرأ ابن صدقة وكتب إلى الخليفة الناصر لدين الله رسالة " يكثر القول فيها في حق أستاذ الدار ابن الصاحب، وأن الديوان يحكم فيه برأيه، والأموال تجبى إليه، وما يقدر أحد يستوفي لبيت المال منه شيئا". وكان ابن صدقة محقا في مكاتبة الخليفة الناصر حيث جاء رده مشجعا له علي استمرار معارضته لابن الصاحب فقال: "ابن صدقة يـُصدقه فيما ذكره، فتيقن ابن صدقة ... أن الخليفة قد تغير على أستاذ الدار، وأنه يقبل القول فيه"[٥]، وهذا يعد – في رأينا – تحولا هاما في علاقة الخليفة الناصر وأستاذ داره ابن الصاحب، مما يشير إلى بداية ضعف ثقته فيه.

---

(١) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ٢٣١ .

(٢) كان ابن شاهنشاه قد ذكر في كتابه مضمار الحقائق ص ٢٣١ تاريخ ولايته في عام ٥٨١ هـ، ولم يتفق معه أحد من المؤرخين، بل أكدت المصادر العراقية ولايته عقب وفاة ابن البخاري في التاريخ المذكور ومنها. ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج ٣، ص ٤٠٥؛ ابن الساعي: الجامع المختصر، ج ٩، ص ٦٠ .

(٣) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ٢٣١ – ٢٣٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٣٢.

(٥) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ٢٣٥.

رفض ابن صدقة بعد تشجيع الخليفة له تدخل ابن الصاحب في منصبه، وكلما طلب منه شيئا كان رده: "لا افعل هذا الأمر إلا بتقدم الخليفة"، وانتقد ابن شاهنشاه تصرف ابن صدقة هذا ووصفه بالضعف وقلة التصرف، لأنه ظن أن تعيينه كان برأي الخليفة، ولم يدرك أن ابن الصاحب كان لا يزال صاحب الأمر والنهي في الخلافة[١].

اجتمع ابن الصاحب مع الخليفة الناصر، وتحدث معه بشأن عزل نائب الوزارة ابن صدقة لأنه لا ينفذ أوامره، فقال له: " قد جنح أمرنا في الديوان وصار هذا النائب إذا تقدم إليه بأمر يقول لا أفعله "، ولم يكمل ابن الصاحب للناصر بقية قول ابن صدقة وهو: "لا أفعل هذا الأمر إلا بتقدم الخليفة" – كعادته دائما في اخفاء الأسباب الحقيقية عن الخليفة – وتوقع ابن الصاحب أن يوافق الخليفة على عزله لثقته الكبيرة فيما يقوله، مثلما فعل من قبل مع سليمان ابن جاووش أول نائب وزارة، ولكنه فؤجيء برد الخليفة الناصر عليه، حيث أوضح له أنه على علم بحقيقة علاقته بابن صدقه، وأخبره بشكوى ابن صدقة فيه، وسخر الخليفة منه بقوله: " كأنك ما علمت أنه كتب إلى مطالعة يذكر فيها كذا وكذا في حقك"[٢].

لهذا تمثل نيابة ابن صدقة للوزارة – في رأينا – حلقة هامة في تاريخ العلاقة بين الخليفة الناصر وابن الصاحب، وعكست بداية تحرر الخليفة من تسلطه ولكن لم يحن الوقت للقضاء عليه، ولهذا منحه سلطة أن يولى ويعزل من يشاء، وشعر ابن الصاحب بتغير الخليفة تجاهه ولذا منح ابن صدقة فرصة أخرى، ولكن ابن صدقة استمر في رفض تحكمه، بل سخر من ابن الصاحب وقال له: " ما هذا ديوان الأبنية "، إشارة إلى تحكم ابن الصاحب في هذا الديوان وشاع تمرد ابن صدقة بين عامة بغداد فقرر ابن الصاحب عزله[٣].

في الثالث والعشرين من ربيع الآخر عام ٥٨٠هـ/ ١١٨٥م[٤]، ولاحظنا أن ابن الصاحب لم ينتقم منه كعادته التي عرفت عنه تجاه من يقف ضده – وفي رأينا – أن معرفة الخليفة بحقيقة الأمور وإشاعتها بين الناس أنقذت ابن صدقة من القتل.

ابن الداريج: (ربيع الآخر ٥٨٠ – شوال ٥٨٣ هـ/ ١١٨٤ – ١١٨٧ م)

تعكس ظروف ولايته المزيد من تطور العلاقة بين الخليفة الناصر وابن الصاحب، كما تشير إلى استمرار تحكم ابن الصاحب في منصب نائب الوزارة. وكان ابن الصاحب قد رشح

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٣٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٣٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٣٥ – ٢٣٦.

(٤) ابن الدبيثي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٠٥؛ ابن الساعي: المصدر السابق، ج ٩، ص ٦٠؛ الغساني: المصدر السابق، ص ٤٠٩.

أربعة أسماء ليختار الخليفة من بينهم نائب وزارة، وهذا يعد تطورا هاما غير مسبوق حيث لم ينفرد كسالف العهد في المرات السابقة باختيار شخص لينال موافقة الخليفة عليه، وكان من الأسماء عارض الجيش ابن الداريج[١]، وحاجب الباب ابن هبيرة، وزكى ابن الصاحب الأخير لعمله معه من قبل، فلم يختره الخليفة واختار ابن الداريج في تحد جديد له، فتم تعيينه[٢].

وليس لدينا ما يوضح مظاهر تحكم ابن الصاحب في منصب ابن الداريج لانتهاء كتاب مضمار الحقائق لابن شاهنشاه الذي انفرد بالكثير عن تسلطه في الخلافة، ومع ذلك فهناك بعض الإشارات التي تؤكد استمرار تحكم ابن الصاحب منها أنه أدخل ابن الداريج إلى بيته وجلسا معا في " خلوة " قبل مراسم تعيينه[٣] ومن الراجح أنه وضع له أساس عمله معه، كما عكس طول ولايته للمنصب لأكثر من ثلاث سنوات حسن علاقته بابن الصاحب، وإن لم يكن الأمر كذلك لكان العزل هو المصير المحتوم مثلما عزل سليمان بن جاووش وابن صدقة المعارضين السابقين له، وظل ابن الداريج في عمله حتى عزل منه – بعد مقتل ابن الصاحب بعدة أشهر– في شهر شوال عام ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م[٤].

الديوان:

يعرف بديوان الزمام أو الديوان العزيز[٥]، ويسمى من يتولاه صاحب الديوان، وهو من الوظائف التي أوضحت مدى تسلط أستاذ الدار ابن الصاحب وتحكمه في الخلافة العباسية،

---

(١) محمد بن عبد الباقي أبو الفتح يعرف بابن الداريج: فارسي الأصل، والداريج مصطلح عراقي يطلق علي الحافظ للغلات إذا حملت من بلد إلي آخر، عمل محمد حاجبا في الديوان ثم حاجب الحجاب، وتولى ديوان العرض، وهو الديوان الخاص بشئون الجيش وتنظيمه وتسجيل رواتب العسكر، كما قاد معركة في دقوقا وأعادها لتبعية الخلافة ومدحه الشاعر ابن التعاويذي، تولى نيابة الوزارة ثلاث سنوات ثم عزل وتوفي عام ٥٨٦ هـ/ ١١٩٠م. السمعاني: الأنساب، ج ٨، ص ٣١٢؛ سبط ابن التعاويذي: ديوانه (مطبعة المقتطف مصر ١٩٠٣) ص ٨٥ – ٨٦؛ ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج ١، ص ٤٤١؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤١، ص ٢٥٠؛ الغساني: المسجد المسبوك، ص ٤٠٩ .

(٢) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ٢٣٦ – ٢٣٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٣٧ .

(٤) ابن الدبيثي: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٤١.

(٥) أنشأ الخليفة العباسي المهدي (١٥٨ – ١٦٩ هـ/ ٧٧٥ – ٧٨٥ م) ديوان الزمام في عام ١٦٢هـ/ ٧٧٨م، وعرف بديوان الأزمة، واشتهر أيضًا باسم الديوان، وكان يرأسه الوزير أو نائب الوزارة، ويعاونه صاحب الديوان، وهو بمنزلة السكرتير اليوم، ويقوم صاحب الديوان بحساب ضرائب العراق جميعها، ومن موظفي الديوان المشرف والصدر أو الناظر وكاتب السلة. ابن الأثير: الكامل، ج ٥، ص ٦٢؛ ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج ٣، ص ٧٩؛ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام (مكتبة النهضة المصرية، ط التاسعة ١٩٨٦)، ج ٢، ص ٢٦٩؛ بدري محمد فهد: تاريخ العراق (مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٧٣)، ص ١٤١– ١٤٦ .

كما اظهرت طرق انتقامه ممن تقوى شوكته، أو ممن يحاولون لفت انتباه الخليفة أو إبلاغه بأمور خطيرة، بطرق شتى ما بين شبه جنائية لاتهامه بقتل أحدهم، وبين تلفيق التهم والقبض على الآخر.

ابن الوكيل[١] (٥٧٠ – ٥٧٧ هـ/ ١١٧٥ – ١١٨٢ م):

تولى وظيفة صاحب الديوان عام ٥٧٠ هـ/ ١١٧٥م[٢] في عهد الخليفة المستضيء بأمر الله (٥٦٦ – ٥٧٥ هـ/ ١١٧١ – ١١٨٠ م)، وظل بها حتي ولاية الخليفة الناصر لدين الله في عام ٥٧٥ هـ/ ١١٨٠ م فأبقى عليه بها[٣]، ثم ما لبث أن لفت ابن الوكيل انتباه الخليفة الناصر بسبب كفاءته في الديوان، وفي المهام الأخري التي أسندت إليه، حيث كلفه الخليفة بمهمة بمدينة واسط فأداها بكفاءة كبيرة، ولهذا فكر الناصر في تعيينه وزيرا، ورشحه لهذا المنصب لأنه على حد قوله: "قد عرف قواعد الديوان"[٤].

علم ابن الصاحب بتفكير الخليفة وقلق منه – في رأينا – بسبب ما اشتهر عن ابن الوكيل من قوة وكفاءة قد لا تجعله مطيعا له، خاصة وهو لديه حينئذ نائب وزارة ينفذ كل أوامره وهو ابن البخاري، ولهذا قرر التخلص من ابن الوكيل.

ألمح ابن شاهنشاه إلى اتهام ابن الصاحب بقتل ابن الوكيل، فقال عقب توضيحه رغبة الخليفة في تعيينه وزيرا: " فنقل ذلك إلى أستاذ الدار ابن الصاحب

فنفذ إلى "طريق خراسان"[٥] من أطمعه، إشارة إلى تحريضه على قتله، ثم أكد ابن شاهنشاه اتهامه لابن الصاحب عندما أوضح سعادته بموت ابن الوكيل فقال: "فلما مات كان

---

(١) الحسن بن أحمد بن علي بن محمد أبو علي: ولاه الخليفة المستضيء بأمر الله وظيفة حاجب الحجاب، ثم أسند إليه رئاسة الديوان، ولما تولى الخليفة الناصر لدين الله في عام ٥٧٥هـ/ ١١٨٠م أقره عليها، وظل في رئاسة الديوان حتى وفاته في ربيع الأول عام ٥٧٧هـ/ ١١٨١م . ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج٣، ص٧٩.

(٢) ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٢٥٤.

(٣) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص٤٠؛ ابن الدبيثي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٧٩.

(٤) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ١٤٢.

(٥) طريق خراسان: هو طريق تجاري كبير تمر منه القوافل، ويربط بغداد بمدن إقليم الجبال وما وراء النهر، يبدأ من باب خراسان في الجانب الشرقي ببغداد ثم يمتد إلي حلوان ويدخل إقليم الجبال، ومن الواضح أن الجزء المار منه بالعراق صار مدينة معروفة في شرقي بغداد باسم طريق خراسان تضم العديد من القري منها بُرسف، وكان يعين به موظفون وقضاة من قبل الخلافة منهم ابن جميل الذي تولي النظر فيه، ومن القضاة أبو الحسن التنوخي وأبو الفضل الهاشمي. الخطيب البغدادي: مدينة السلام، ج٢، ص٢٥٠، ج ١٣، ص ٥٥٧؛ ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج ٢، ص ١٩٣ – ١٩٤؛ ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٨٤؛ كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية (ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٥م)، ص٢٣، ٢٦٢.

جماعة ممن كانوا ينبسطون بمجلس أستاذ الدار يهنئونه بموت ابن الوكيل"[١]، في ربيع الأول عام ٥٧٧هـ/ ١١٨٢م، وكان لايزال شابا[٢].

وتخلص بذلك ابن الصاحب بأسلوب لا يدينه من أحد الموظفين الأقوياء، خوفا من عدم تمكنه من فرض سيطرته عليه بعد تعيينه وزيرا من قبل الخليفة.

داود الأنصاري (ربيع الأول ٥٧٧ – صفر ٥٧٩ هـ/ ١١٨٢ – ١١٨٤م):

اختاره أستاذ الدار ابن الصاحب بعد أيام قلائل من وفاة ابن الوكيل، وكان دقيقا في اختياره له، فمن ناحية كان "لداود"[٣] خبرة سابقة في العمل في الديوان حيث تولى الإشراف عليه في عهد الخليفة المستضيء بأمر الله، ومن ناحية أخرى كان داود قد زهد الدنيا وتصوف وأقام في "رباط شيخ الشيوخ"[٤]

مما يدل على أنه رجلا لا تغره المناصب، فاختاره لذلك ابن الصاحب – في رأينا – ليضمن سيطرته على الديوان، فأخذ موافقة الخليفة الشكلية على تعيينه، وتأكد حسن اختياره له منذ أول يوم حيث كان داود يلقب بمجد الدين مثل ابن الصاحب فطالبه بتغيير اللقب حتى لا يكون مثله، فوافق داود ولقب بكمال الدين، وعكس هذا التصرف لين شخصيته، وأنه لن يعارض أوامر ابن الصاحب، وهذا يفسر بقاءه في عمله لمدة عامين[٥].

---

(١) مضمار الحقائق، ص ١٤٢.

(٢) ابن الدبيثي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٧٩.

(٣)أبو الفتح الكاتب كمال الدين داود بن يونس الأنصاري: ولد عام ٥٣١ هـ/ ١١٣٦ م، درس علم الحديث، ووصفه ابن الدبيثي – الذي روى عنه – بأنه شيخ من أهل الكتابة وخدمة الديوان العزيز، ولاه الخليفة المستضيء بأمر الله الإشراف بالدايوان، ثم تولى رئاسة الديوان في عهد الناصر لدين الله عام ٥٧٧ هـ/ ١١٨١ م، وظل إلى أن عزل في صفر عام ٥٧٩ هـ/ ١١٨٣ م، فلزم بيته حتى وفاته عام ٦١٦ هـ/ ١٢١٩ م، ودفن بالكوفة بمشهد الإمام علي بن أبي طالب .ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج ٣، ص ٢٥٥ – ٢٥٦؛ المنذري: التكملة، ج ٢، ص ٤٦٢ – ٤٦٣؛ ابن الفوطي: مجمع الآداب، ج ٤، ص ١٥٣؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤٤، ص ٢٨٩؛ الصفدي: الوافي، ج ١٣، ص ٣١٨.

(٤) رباط شيخ الشيوخ: بناه أبو سعد الصوفي النيسابوري بمنطقة نهر المعلي ببغداد وبنى وقوفه، وباع لأجله أملاكه بنيسابور، وصار لقب شيخ الشيوخ متوارثا في أسرته لأهتمامهم بالتصوف، وكان هذا اللقب يطلق على من يتولى الإشراف على رجال الطرق الصوفية، وتوفي أبو سعد في عام ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ م. ابن الأثير: الكامل، ج٨، ص ١٤٤؛ الذهبي: سير أعلام، ج ١٤، ص ٣٠ – ٣١؛ حسن الباشا: الألقاب الإسلامية، ص ٣٦٦.

(٥) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ١٤٢.

لم يستمر داود في رضائه على تسلط ابن الصاحب، وحاول أن يبلغ الخليفة بأمور هامة عن طريق "شيخ الشيوخ"[١]– الذي كان يقيم في رباطه – وكان شيخ الشيوخ تربطه بالخليفة الناصر علاقة وطيدة[٢]، فعلم ابن الصاحب بهذا عن طريق شبكة جواسيسه المنتشرة بحضرة الخليفة، وقيل في ذلك: "قد نقل إلي أستاذ الدار ونائب الوزارة ابن البخاري أن شيخ الشيوخ يعرض على الخليفة مكتوبات سرا فنسب ذلك إليه (أي إلى داود) فأخذ كل منهما يقبح فعله". ولهذا أصدر ابن الصاحب أوامره بالقبض على داود، واتخذ من شكاوى أهالي الكوفة ضده ذريعة للقبض عليه، وجعل تقديره لضرائبهم سببا للقبض عليه، وتوسط له شيخ الشيوخ عند الخليفة الناصر فقرر الخليفة تسليمه إلى شيخ الشيوخ وظل داود : "ملازما للرباط ليلا ونهارا ولا يخرج منه خوفا من أستاذ الدار"[٣].

حاجب باب النوبي:

كان لابن الصاحب وأسرته – كما سبق أن ذكرنا – خبرة طويلة بالعمل في هذه الوظيفة، ولذا من المتوقع أن يحكم أستاذ الدار ابن الصاحب سيطرته على من يتولاها، وكانت علاقته "بابن زيادة"[٤] الذي تولى الوظيفة لمدة عامين مثالا واضحا في الإفصاح عن وسائل ابن الصاحب الانتقامية مع معارضيه، حيث شن على ابن زيادة بمشاركة نائب الوزارة ابن البخاري حروبا عديدة، منها ما يعرف بمفهومنا الحديث بالحرب الإعلامية ومنها ما يعرف بالحصار الاقتصادي.

---

(١) هو صدر الدين عبد الرحيم (وقيل عبد الرحمن) بن شيخ الشيوخ إسماعيل النيسابوري البغدادي: كان ذا رأي سديد تستفيد به الملوك، وكان رباطه ملجأ كل خائف، واشتهر بالزهد والورع، أرسله الخليفة الناصر كثيرا رسولا عنه إلى صلاح الدين، وتوفي في عام ٥٨٠ هـ/ ١١٨٤ م بمدينة الرحبة. ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٦٧؛ الصفدي: الوافي، ج ١٨، ص ٧٣؛ الغساني: المسجد المسبوك، ص ١١٩.

(٢) كان لشيخ الشيوخ مكانة كبيرة لدى الخليفة الناصر لدين الله، ولهذا أمر بأن لا يعترض أحد اعتصم برباطه ولو كان عليه المال والدم. ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ١٦١.

(٣) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ١٩٤ – ١٩٥.

(٤) قوام الدين يحيي بن علي بن زيادة وقيل ابن زبادة: أصله من واسط، وولد ببغداد عام ٥٢٢ هـ/ ١١٢٨ م، اشتهر بالكتابة والبلاغة، وعمل بالعديد من الوظائف منها النظر بديوان واسط والبصرة والحلة ثم حجابة باب النوبي، وتولى الأستاذ دارية بعد مقتل ابن الصاحب في عام ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م حتي عام ٥٨٥ هـ/ ١١٨٩ م، وتولى ديوان الإنشاء عام ٥٩٢ هـ/ ١١٩٦م حتى وفاته عام ٥٩٤هـ/ ١١٩٨م. ياقوت: معجم الأدباء (دار الكتب العلمية بيروت ط الأولى ١٩٩١ م) ج ٥، ص ٦٢٣؛ ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج ٥، ص ١١٧ – ١١٨؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٢٢، ص ٦٣؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦، ص ٢٤٤ – ٢٤٩؛ ابن الفوطي: مجمع الآداب، ج ٣، ص ٥٦٣؛ الذهبي: سير أعلام، ج ١٥، ص ٤٦٨؛ ابن أبي عذيبة: إنسان العيون، ص ١٦١ .

ولى الخليفة المستضيء بأمر الله ابن زيادة حجابة باب النوبي والنظر في المظالم منذ المحرم عام ٥٧٥ هـ/ ١١٧٩ م، واستمر بها حتى عهد الخليفة الناصر لدين الله إلى أن عزل منها في ربيع الأول عام ٥٧٧ هـ/ ١١٨١م[١].

اشتهر ابن زيادة بالبلاغة والفصاحة وكتابة الرسائل وتميز بذلك حتى قيل عنه إنه: "لا تلد النساء قبله"، كان ذلك من أسباب كراهية ابن الصاحب له لأنه – كما اتضح لنا من قبل – كان دؤوبا في إبعاد كل من يجعل من التميز طريقا له، أو كل من يحاول أن يلفت انتباه الخليفة، وحظى ابن زيادة بثقة الناصر، ولهذا خطط ابن الصاحب لعزله لأنه كان " يقبح ذكره ويقصده "، وهنا استخدم ابن الصاحب عامة أهل بغداد – أغلبهم من الشيعة على الأرجح – ليعملوا على تشويه سمعة ابن زيادة بأسلوب يشبه الحرب الإعلامية في عصرنا الحديث، حيث كانوا يرددون جملة واحدة عند رؤية ابن زيادة ليلا أو نهارا وهي: " ياغيث مالي بالغرام بد "، وهي تلمح إلى علاقات نسائية لابن زيادة، وكان ابن الصاحب يهدف – في رأينا– إلى اضعاف هيبته، وهوالرجل المسئول عن حفظ الأمن في بغداد، ونجحت خطته، ووجد ابن الصاحب سببا مقنعا لاستصدار أمر من الخليفة بعزله والقبض عليه، فهرب ابن زيادة ولجأ إلى شيخ الشيوخ وطلب وساطته لدي الخليفة والسماح له بالعودة إلى بلده واسط فوافق الخليفة، ولم ينته تدبير ابن الصاحب عند هذا الحد بل تعداه في بلده واسط عن طريق نائب الوزارة ابن البخاري الذي طالب ناظر واسط بمصادرة أملاكه، مما اضطر ابن زيادة إلى العمل ناسخا بالأجر[٢].

اهتمام ابن الصاحب بتقوية المذهب الشيعي وتصديه لكبار فقهاء السنة في بغداد

(٥٧٥ – ٥٨٣ هـ/ ١١٨٠ – ١١٨٧ م)

اختلفت أحوال الشيعة والسنة في العراق منذ بداية عهد الخليفة الناصر لدين الله في ذي القعدة عام ٥٧٥هـ/ ١١٨٠م عن عهد الخليفة المستضيء بأمر الله، حيث أصبحت السلطة الحاكمة تتمثل في الخليفة وأستاذ الدار يعتنقان المذهب الشيعي، ولهذا كان أمرا طبيعيا أن

---

(١) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ٢٢، ص ٦٣؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٤٥؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤٠، ص ٣١.

(٢) أمدنا ابن شاهنشاه بهذه التفاصيل ويجدر بنا تصويب خطأ ورد لديه، فذكر أن ابن زيادة عمل بوظيفة صاحب الديوان مع أن معظم المصادر التي ذكرناها في ترجمة ابن زيادة، وفي هامش (١) أكدت أنه عمل بوظيفة حاجب باب النوبي ولم يعمل بوظيفة صاحب الديوان، كما ذكر ابن شاهنشاه أن ابن صدقة خلف ابن زيادة في الديوان، والصحيح أنه خلفه كما ذكر ابن الدبيثي في وظيفة حاجب باب النوبي . كما أورد ابن شاهنشاه، قبل ذكره ابن زيادة في ص ١٤٢ خبر ولاية داود الأنصاري الديوان، فهو كأنه أورد ولاية اثنين للديوان، ولذا وجب التصويب. ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ١٤٣؛ ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج ٣، ص ٤٠٦ .

يشهد عهدهما زيادة قوة الجانب الشيعي على حساب السنة. حيث كان الخليفة الناصر على خلاف آبائه من العباسيين يعتنق مذهب الشيعة الإمامية[١]، واتفق معه في اعتقاده ابن الصاحب[٢]، حتى قيل إنه كان وراء اعتناق الناصر للمذهب الشيعي[٣]، بحكم كونه من أسرة شيعية معروفة باعتناقها المذهب، وأكد ابن شاهنشاه ذلك بقوله: "ظهر ببغداد التشيع ... وكان أستاذ الدار ابن الصاحب معروفا بذلك هو وبيته يرثه عن آبائه"[٤].

حدثت أولى مظاهر العنف من جانب السلطة الشيعية تجاه السنة بعد أيام قلائل من خلافة الناصر، حيث بدأ عهده مع أستاذ داره ابن الصاحب بقتل "ظهير الدين ابن العطار"، أحد أهم قيادات السنة والمتعصب ضد الشيعة وكان يتولى في عهد الخليفة المستضيء وظيفتي صاحب المخزن ونائب الوزارة، وتزعم الفريق الرافض ولاية العهد للناصر، وفكرة تخلص السلطة الجديدة من بعض رموز السلطة القديمة إما بالسجن وإما القتل ليست بجديدة[٥]، وما يهمنا هو أن نوضح أن السلطة الشيعية لم تكتف بقتل ابن العطار، وإنما حرضت عامة بغداد على التمثيل بجثمانه بصورة تعكس مدى كراهيتهم له، وثأرهم على ما فعله في عهده مع الشيعة.

حظى ابن العطار بمكانة كبيرة لدي الخليفة المستضيء بأمر الله، وقد بدأت علاقته به قبل ولايته الخلافة في عام ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م[٦]، واتضحت ملامح العلاقة بينهما من عدة جوانب منها:

---

(١) ابن الساعي: مختصر أخبار الخلفاء (المطبعة الأميرية بولاق ط الأولى ١٣٠٩ هـ)، ص ١١١؛ ابن الطقطقي: الفخري، ص٣٢٢؛ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر (مكتبة المتنبي القاهرة)، ج٣، ص١٣٦-١٣٧؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١٦، ص١٨١؛ تاريخ الإسلام، ج ٤٥، ص٨٥؛ الصفدي: نكت الهميان في نكت العميان (تحقيق طارق الطنطاوي دار الطلائع القاهرة ١٩٩٤)، ص ٧٦؛ الوافي بالوفيات، ج٦، ص١٩٢؛ ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، ج ٢، ص٤٣٩؛ الغساني: المسجد المسبوك، ص ١٧٣؛ القلقشندي: مآثر الإنافة (تحقيق عبد الستار فراج، عالم الكتب بيروت)، ج ٢، ص٥٦ ؛ ابن أبي عذيبة: إنسان العيون، ص ٣؛ السيوطي: الخلفاء، ص٤٥١.

(٢) الذهبي: سير أعلام، ج١٥، ص ٣٦٩، ج١٦، ص١٩٠؛ العبر، ج٣، ص٨٧؛ تاريخ الإسلام، ج٤١، ص١٦٦-١٦٧؛ الصفدي: الوافي، ج٢٧، ص١٧٨؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج٣، ص٤٢٦؛ ابن أبي عذيبة: المصدر السابق، ص ٨٦.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٦، ص١٨١؛ تاريخ الإسلام، ج٤٥، ص٨٥؛ الصفدي: نكت الهميان، ص ٧٦؛ الوافي بالوفيات، ج ٦، ص١٩٢.

(٤) مضمار الحقائق، ص ١٤٦.

(٥) من ذلك قُتل الوزير ابن البلدي بعد وفاة الخليفة المستنجد بالله عام ٥٦٦ هـ. ابن الجوزي: المنتظم، ج١٠، ص٢٣٣؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٠٨- ١٠٩ .

(٦) ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ج٥، ص ٥٢؛ الذهبي: سير أعلام، ج١٥، ص٣٢١؛ تاريخ الإسلام، ج٤٠، ص١٨٩.

منح الخليفة المستضيء بأمر الله ابن العطار عدة وظائف هامة، فعمل في ديوان الخراج الذي صار يعرف في ذلك الوقت بالمخزن[١]، وتدرج في الوظائف من مشرف إلى ناظر إلى وكيل للمخزن[٢]، ثم تولى رئاسته منذ عام ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م، وصار يعرف "بصاحب المخزن"[٣]، كما أسند إليه الخليفة أيضاً وظيفة نائب الوزارة منذ شهر ذي الحجة عام ٥٧٣هـ/ ١١٧٨م وظل فيها حتى وفاة الخليفة المستضيء في شوال ٥٧٥هـ/ ١١٨٠م[٤].

شجع الخليفة ابن العطار على تقوية المذهب السني في العراق، فاهتم بعقد المناظرات الفقهية منذ عام ٥٧١هـ/ ١١٧٥م، كما حرص ابن العطار على عقد احتفال ديني يقام في منزله سنويا يسمى طبق صاحب المخزن[٥]، وكان يعقد مرتين في شهر رمضان، ويشرفه بالحضور الخليفة المستضيء وكبار فقهاء السنة وفي مقدمتهم ابن الجوزي، ويتم عقد المناظرات بينهم، وفي بعض الأحيان كانوا يبيتون في بيته لليوم التالي، كما كان ابن العطار يسمح للعامة بحضور الاحتفال، وتكرر حدوثه في الأعوام ٥٧٢- ٥٧٤هـ/ ١١٧٧-١١٧٩م[٦].

وصار ابن العطار بذلك راعيا للمذهب السنى وحظى بتأييد الخليفة.

من ناحية أخرى شجع الخليفة المستضيء بأمر الله ابن العطار على قمع الشيعة في بغداد، وصار يده التي تحد من نفوذهم، ولهذا قيل عن حال الشيعة في عهد المستضيء إنه: "ضعف ووهن"[٧].

---

(١) هذه الوظيفة تعادل الآن منصب وزير المالية. د: مصطفي جواد: نظم الخلافة العباسية، ص (ض) ضمن مقدمة تحقيقه لكتاب الجامع المختصر لابن الساعي، ج ٩ .

(٢) ابن الجوزي: المصدر السابق، ج١٠، ص٢٣٣؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص١١١؛ الذهبي: سير أعلام، ج ١٥، ص ٣٢١-٣٢٢؛ تاريخ الإسلام، ج٤٠، ص١٨٩ .

(٣) على الأرجح تولى ابن العطار وظيفة صاحب المخزن عقب وفاة صاحب المخزن في ربيع الأول عام ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م، حيث جاء في الأحداث التاريخية في شهر ذي القعدة من السنة أن ابن العطار صار صاحب المخزن. ابن الجوزي :المنتظم، ج ١٠، ص ٢٥٦؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٣٤؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٢٣، ص ٣٠٤.

(٤) ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٢٧٥؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٤٨؛ ابن الدبيثي: المصدر السابق، ج ٥، ص ٥٢؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤٠، ص ٢٠ .

(٥) ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٢٥٧ – ٢٥٨، ٢٨٦ .

(٦) أمدنا ابن الجوزي بتفاصيل هذه الاحتفالات، وعلى الأرجح أنه عقد أيضًا في رمضان عام ٥٧٥ هـ/ ١١٨٠ م، ولم يورده ابن الجوزي لأنه أنهى كتابه المنتظم بأحداث عام ٥٧٤ هـ/ ١١٧٩ م. المنتظم، ج ١٠، ص ٢٦٤-٢٦٥، ٢٧٢، ٢٨٦ .

(٧) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤٠، ص ١٦٧؛ السيوطي: الخلفاء، ص ٤٥٥.

شهد عام ٥٧١هـ ١١٧٥م بداية قمع الشيعة بقوة[١]، خاصة بعد أن زاد إعلانهم عن طقوسهم ومنها سب الصحابة، ولهذا كتب ابن العطار إلى الخليفة المستضيء يحثه على توكيل أمر قمعهم إلى الفقيه السني الحنبلي ابن الجوزي، ويتحدث ابن الجوزي عن دوره في هذا قائلا: "وكان الرفض في هذه الأيام قد كثر فكتب صاحب المخزن إلى أمير المؤمنين: "إن لم تقو يدي ابن الجوزي لم تطق على دفع البدع فكتب أمير المؤمنين بتقوية يدي فأخبرت الناس بذلك على المنبر"، وقرر ابن الجوزي عدة عقوبات للمخالفين من الشيعة تصل للقتل وهي: " فمن سمعتموه من العوام ينتقص الصحابة فأخبروني حتى أنقض داره وأخلده الحبس، وإن كان من الوعاظ حدرته المشان"، وقد لاقت تهديدات ابن الجوزي صدى وامتنع الشيعة عن إعلان طقوسهم لبعض الوقت[٢].

تجدد نشاط الشيعة في بغداد بقوة في شهر رمضان عام ٥٧٤ هـ/ ١١٧٩ م – قبل عام تقريبا من ولاية الخليفة الناصر لدين الله – حيث ظهر في منطقة الكرخ الشيعية شاعر يعرف " بأبي السعادات ابن قرايا "، وكان ينشد في الأسواق أشعارا شيعية[٣] لأحد شعرائهم القدامي وهو "ابن العوني"[٤]، وفيها سب للصحابة[١]، وقد تصدت السلطة السنية متمثلة في الخليفة

---

(١) ساهم في زيادة قوة الشيعة وجود بعض كبار رجال الدولة منهم في عهد المستضيء، ومنهم الأمير يزدن التركي أحد كبار الأمراء منذ عهد الخليفة المستنجد بالله (٥٥٥ – ٥٦٦ هـ/ ١١٦٠ – ١١٧٠ م) وقيل كان له دور كبير في قوة الشيعة ولهذا لما توفي في عام ٥٦٨ هـ/ ١١٧٢ م فرح السنة بموته وثأر لذلك الشيعة. ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٠، ص ٢٤٢؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٩، ص ٣٢٨؛ ابن كثير: البداية، ج١٢، ص٢٧٢.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٠، ص ٢٥٩؛ ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، ج ٢، ص ٤٧٥ – ٤٧٦.

(٣) ابن الجوزي :المصدر السابق، ج ١٠، ص ٢٨٥؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤٠، ص٢٦ .

(٤) ذكره ابن الجوزي باسم علي العوني، وأوردته مراجع الشيعة باسم طلحة بن عبيد الله أبي محمد الغساني المصري، وهو من شعراء الشيعة المهتمين بمدح آل البيت، وأورد له ابن شهراشوب المازندراني مزيدا من شعره ومنها :

علي خير الورى بعد النبي ومن في الشرق والغرب مضروب به المثل

وكانت أشعاره ملهمة لكثير من الشيعة، ومنهم والد الشاعر ابن منير الطرابلسي ت ٥٤٨هـ/١١٥٣م الذي انشد أشعاره في أسواق طرابلس، واختلفت الأراء حول تاريخ وفاته فقيل كان حيا عام ١٠١ هـ/ ٧١٩ م، وقيل توفي عام ٣٥٠هـ/ ٩٦١م. ابن الجوزي: المنتظم، ج١٠، ص ٢٨٥؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق (تحقيق محمد العمروي دار الفكر بيروت ١٩٩٥)، ج ٦، ص ٣٢؛ ابن شهراشوب: مناقب آل أبي طالب (المطبعة العلمية بقم)، ج ١، ص٢٤٦، ٢٤٨، ٢٥١-٢٥٢، ٢٦٢، ج ٢، ص ١٦؛ محسن الأمين: أعيان الشيعة (دار التعارف بيروت ١٩٨٣)، ج ٧، ص ٤٠١؛ محمد السماوي: الطليعة من شعراء الشيعة، (تحقيق كامل سلمان، دار المؤرخ العربي بيروت ٢٠٠١)، ج ١، ص ٤٥٠-٤٥٢؛ عبد الحسين الشبستري: مشاهيرشعراء الشيعة (المكتبة الأدبية ط الأولى ١٤٢١هـ)، ج ٢، ص ٣٤٥.

المستضيء بأمر الله وابن العطار – صاحب المخزن ونائب الوزارة – لهذا النشاط الشيعي بقوة، وماقاموا به تجاه المنشد ابن قرايا ثأرت له الشيعة بعد ذلك مرتين في عهد الخليفة الناصر لدين الله: الأولي بعد أيام قلائل من ولايته بتمثيلهم بجثمان ابن العطار، والثانية في عام ٥٨٢ هـ/ ١١٨٦ م حيث ازدادت قوة الشيعة واحتفلوا بعاشوراء بزعامة ابنة ابن قرايا هذا، وهذا ما سوف نوضحه.

عقد الخليفة المستضيء بأمر الله مجلسا من الفقهاء لمواجهة الشاعر ابن قرايا وسبه للصحابه، فأفتوا بقطع يديه ولسانه[٢]، ثم قام ابن العطار بتفتيش منزله[٣] فوجد فيه كتبا كثيرة تسب الصحابة[٤]، فأمر بتنفيذ فتوى الفقهاء فنفذ في الرابع والعشرين من شهر رمضان[٥]، ولم تكتف العامة السنية بهذا العقاب بل قاموا برجمه وظلوا وراءه حتى قتلوه، ثم أحرقوا جثمانه ورموا رماده بالنهر[٦] وهناك رواية أخرى توضح أنه تم التمثيل بجثمان ابن قرايا وأن العامة طافوا به في جميع الأسواق[٧]، ولهذا سيثأر الشيعة من ابن العطار بعد ذلك بعام وينتقمون منه بنفس الأسلوب الذي اتبع مع ابن قرايا .

ولم تنته إجراءات قمع الشيعة عند هذا الحد بل امتدت لتتبع الكثير منهم وإحراق كتبهم[٨]، وقيل إنه من شدة خوفهم أحرقوا كتبهم بأنفسهم[٩]، وكان لذلك اثر كبير في إضعاف الشيعة ببغداد حتى قيل إنهم "ذلوا"[١٠].

وقد وصف الذهبي حالة الضعف هذه عام ٥٧٤ هـ/ ١١٧٩ م بأنها لم تحدث لهم منذ مائتين وخمسين عاما[١١]، أي قبل دخول السلطة البويهية الشيعية العراق عام ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م، ولهذا لا نعجب من أنه بعد عام من هذه الأحداث يبدأ الخليفة الناصر لدين الله وأستاذ

---

(١) ابن كثير: البداية، ج ١٢، ص ٣٠٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٠٠.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨، ص ٣٨٦.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٠، ص ٢٨٥؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤٠، ص ٢٦.

(٥) ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٢٨٥.

(٦) ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٢٨٦؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٠، ص ٢٦؛ العبر، ج ٣، ص٦٥.

(٧) ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٣٠٠ .

(٨) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤٠، ص ٢٦؛ العبر، ج ٣، ص ٦٥ .

(٩) ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٢٨٦ .

(١٠) ابن الجوزي: المصدر السابق، ج١٠، ص٢٨٦؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٠، ص٢٦؛ العبر، ج٣، ص٦٥.

(١١) العبر، ج ٣، ص٦٥ .

الدار ابن الصاحب عهدهما بقتل ابن العطار وتحريض العامة على التمثيل بجثمانه، ويتضح لنا بذلك أن الدافع المذهبي يأتي في مقدمة الأسباب وراء التخلص من ابن العطار، فضلا عن عدة دوافع أخرى.

الخليفة الناصر لدين الله كان لديه دوافع سياسية تؤكد كراهية ابن العطار له قبل ولايته الخلافة، وقد يكون ميله للتشيع سببا لكراهيته له.

اتضحت مظاهر كراهية ابن العطار للأمير الناصر من حرصه على أن لا يكون وليا للعهد بعد والده المستضيء بأمر الله، وقد استغل ابن العطار علاقته الوطيدة مع الخليفة المستضيء – والتي ظهرت من حرص الخليفة على حضور احتفاليته في منزله في رمضان كل عام كما أوضحنا – وعمل على إقناعه بجعل ولاية العهد من بعده لابنه الآخر المنصور، ثم خابت آماله، بسبب نجاح محظية الخليفة " بنفشا " وأستاذ الدار ابن الصاحب – كما أوضحنا من قبل – في التأثير على المستضيء حتى أصدر قراره بجعل الأمير الناصر وليا لعهده[١]، وخُطب له بولاية العهد في بغداد قبل وفاة والده بأيام في أخر شوال ٥٧٥هـ/ ١١٨٠م[٢].

كان أيضاً لكراهية ابن العطار للأمير الناصر وثقته من أنه لن يتولى الخلافة أكبر الأثر في تشجيع ابن العطار لمخالفي الناصر بل وحمايتهم، ومن ذلك أن الأمير الناصر قد أقطع منطقة "نهر الملك"، وتجرأ رجل يعرف "بأبي الحسن ابن الضحاك"، وأخذ بعض العاملين في الإقطاع دون إذن الأمير، واحتمى ابن الضحاك بدار ابن العطار، وعندما راسله الأمير الناصر رفض إعادة ما أخذه دون إذنه، بل سخر منه من أنه لن يتولى الخلافة بقوله: "الأمير إذا صار خليفة يقطع يدي ولقبه بكل قبيح"، وانتقم منه بعد ذلك الناصر بعد خلافته وعاقبه على سخريته منه[٣].

أما بالنسبة لابن الصاحب وعلاقته بابن العطار منذ أن صار أستاذا للدار في عهد الخليفة المسستضيء بأمر الله في صفر ٥٧١هـ/ ١١٧٥م[٤]، فلم تكن أيضاً جيدة، وقد ظهرت كراهيته الشديدة لابن العطار من قول ابن شاهنشاه: "كان أستاذ الدار ابن الصاحب شديد

---

(١) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ٨، ص ٣٥٥، ٣٥٩؛ الذهبي: سير أعلام، ج ١٦، ص ١٨١؛ تاريخ الإسلام، ج ٤٥، ص ٨٤ .

(٢) ابن الدبيثي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣٢؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص٣٠٤.

(٣) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ١٤١.

(٤) ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٢٥٦.

البغض لابن العطار في أيامه، ويجعل له مساوئ كثيرة"[١]، ويرجع هذا – في رأينا – لاختلاف المذهب بينهما، وقد انعكست كراهية ابن الصاحب على كل المقربين من ابن العطار، وسوف نوضح تفاصيل ذلك في الصفحات القادمة .

هناك أيضاً دوافع تتعلق بعامة بغداد لقيامهم بالتمثيل بجثمان ابن العطار، ويفسر اضطهاده للشيعة قيام العامة منهم بذلك، أما السنة فقد أصابهم بسببه ضيق اقتصادي كبير في عام ٥٧٥هـ/ ١١٧٩– ١١٨٠م[٢] بسبب احتكاره الغلات ومنعه البيع من خزائن الحبوب على الرغم من وفرتها، وأدي ذلك إلى أن "اشتد بغضه في قلوب الناس"[٣]. كما ساهمت المعاملة السيئة للعامة من جانب بعض العاملين من قبل ابن العطار في زيادة كراهيتهم له، ومنهم "مسعود" الذي كان يعمل نقيبا لباب النوبي، ووُصف بأنه كان جبارا ينفذ قرارت ابن العطار بعنف شديد إما بالقتل وإما بالصلب ومصادرة الأموال[٤].

ولهذا لخص المؤرخ سبط ابن الجوزي حفيد ابن الجوزي حال العامة في عهد ابن العطار قائلا: " كان مسيئا إلى الخلق الخاص والعام والعسكر والرعية وخصوصا إلى الشيعة أهل "المختارة"[٥]، و"الكرخ"[٦]، ومشهد موسى ابن جعفر الصادق، قطع أرزاقهم وبدد شملهم[٧]، وكان لابن الأثير رأي مخالف لما سبق، ومدح في سيرة ابن العطار الحسنة مع العامة، كما أنه أكد حمايته لأموالهم[٨] ومن الراجح أن تعصب ابن الأثير للسنة كان وراء رأيه هذا لأنه جاء مخالفا لرد فعل العامة بعد مقتل ابن العطار.

هكذا تجمعت أسباب عديدة لدى السلطة الشيعية لتجعل التخلص من ابن العطار أولى مهامها، وتمهل الخليفة الناصر عدة أيام قبل القبض عليه، وأبقاه في وظيفة صاحب المخزن

---

(١) مضمار الحقائق، ص ١٠٩ .

(٢) وصف ابن الجوزي أثر الغلاء الكبير في عام ٥٧٥ هـ/ ١١٨٠ م قائلا: " جاع أهل القرى ... ثم دخلوا بغداد يكدون وكثر الموت في أهل البلد ... ورأيت قوما من الفقراء يفتشون روث الدواب يستخرجون منه حبات الشعير ". شذور العقود، ص ٣١١– ٣١٢ .

(٣) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ٢٩؛ ابن الطقطقي: الفخري، ص ٣٢١ .

(٤) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ٨، ص ٣٥٨؛ أبو شامة: الروضتين ،ج٣، ص٣٥.

(٥) المختارة: بالضم، محلة كبيرة بالجانب الشرقي من بغداد. ياقوت: معجم البلدان، ج ٥، ص ٧١.

(٦) الكرخ: محلة كبيرة وسط بغداد والمحال التجارية حولها، ويؤكد ياقوت أن أهلها كلهم شيعة إمامية لا يوجد فيها سنة. ياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٤٨.

(٧) مرآة الزمان، ج ٨، ص ٣٥٩.

(٨) الكامل، ج ٩، ص ١٤٩.

فقط[١]، ثم اتخذ من رفض ابن العطار الامتثال لأمره بشأن منح إقطاع "لخالص الخادم" ذريعة مباشرة للقبض عليه في الخامس[٢] وقيل السابع من ذي القعدة عام ٥٧٥هـ/ ١١٨٠م[٣]، وتوفي ابن العطار بعد عدة أيام من أثر التعذيب[٤]، ومنذ القبض عليه بدأ الانتقام منه خاصة من جانب أستاذ الدار ابن الصاحب الذي أبرزت المصادر دوره واتهمته بما حدث لابن العطار بعد ذلك.

فألمح الذهبي إلى أنه بعد القبض عليه لم يهتم ابن الصاحب بداره على الرغم من أنها صارت تحت مسئوليته، وتركها للعامة تنهبها، فقال: "وترسم بداره أستاذ الدار، فنهبت العامة فيها، وعجز الأستاذ دار"[٥]، وبالإضافة إلى ذلك، تعرضت سقوف دار ابن العطار للحرق أيضاً من قبل العامة[٦].

كما أكد ابن شاهنشاه دور ابن الصاحب في تنبيه العامة إلى تابوت جثمان ابن العطار ليتم التمثيل به في شوارع بغداد، على الرغم من أن أهله حرصوا على كتمان خبر خروجه إلا أن ابن الصاحب استخدم علاقاته السابقة بالعاملين بباب النوبي – الذي عمل حاجبا له سنوات عديدة – ليعلم توقيت خروجه، فقال ابن شاهنشاه: "حمل ليلا إلى دار أخته ... وأرادت إخراجه خفية ... فجعل أستاذ الدار على إخراجه عينا من حيث لا يعلم به، ونبه الأعوام على إخراجه، وأوقف جماعته على باب النوبي ينظرون خروجه ... فلما خرج تابوت ابن العطار ... ووصل خارج باب النوبي ... أشار بعض من كان من العين على خروجه إلى العوام والمماليك ... فتكثرت العوام على أخذه"[٧].

وأكد ابن الساعي تورط ابن الصاحب أيضاً، حيث أوضح أنه بعد قيام العامة بالتمثيل بجثمان ابن العطار في شوارع بغداد[٨]، كانوا يصيحون معلنين دور ابن الصاحب بقولهم:

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤٠، ص ١٨٨.

(٢) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ٣٧–٣٨؛ الذهبي: تاريخ الإسلام ،ج٤٠،ص٣٦.

(٣) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٤٨–١٤٩؛ سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ٨، ص٣٥٥؛ أبو الفدا: المصدر السابق، ج٣، ص ٦٢؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص٣٠٥.

(٤) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ٣٨؛ سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ٨، ص ٣٥٩.

(٥) تاريخ الإسلام، ج ٤٠، ص ٣٦.

(٦) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ٨، ص ٣٥٩ .

(٧) مضمار الحقائق، ص ٣٨.

(٨) قيل جردوه من الكفن ووضعوا في رجله شريطا وسحبوه في شوارع بغداد حتى تقطع لحمه وأنقذ الناس قطعة منه ودفنوها. ابن الجوزي: شذور العقود، ص ٣١٢ –٣١٣؛ ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ٣٨؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٤٩؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨، ص٣٥٩؛ أبو الفدا: المختصر، ج٣، ص٦٢.

"وقع لنا يا مولانا الصاحب"[١]، وأكدت بعض المصادر الأخرى قول العامة هذه العبارة دون ذكر ابن الصاحب[٢].

وجملة "مولانا الصاحب" هذه تشير بأصابع الاتهام إلى الشيعة من العامة أكثر من السنة، مما يوضح أن أغلبية العامة كانت من الشيعة، وإن اشترك قلة من السنة يكون للأسباب التي ذكرناها سابقا، ومما يؤكد أن أغلبية العامة كانوا من الشيعة أنهم يرددون أيضاً عبارة: "وفعل به كما فعل بابن القرايا المشد"[٣]، مما يعكس رغبتهم في الثأر منه، لأن ابن العطار كان علي حد قول الذهبي "نقمة وعذابا علي الشيعة"[٤].

وامتد أيضاً عقاب السلطة الشيعية إلى أعوان ابن العطار[٥] منهم مسعود نقيب باب النوبي[٦]، وآخرون غيره[٧]، ومن الواضح أن الاضطهاد شمل أسرة ابن العطار مما اضطرهم إلى مغادرة بغداد والإقامة في دمشق[٨].

واصلت السلطة الشيعية عملها – خاصة أستاذ الدار ابن الصاحب – في اتجاهين وهما العمل على تقوية المذهب الشيعي والتصدي لكبار فقهاء السنة في العراق، والذي بدأ بالتخلص من ابن العطار كما أوضحنا .

من الواضح أن جهودهم بشأن تقوية المذهب الشيعي آتت ثمارها في عام ٥٧٧هـ/١١٨١م، حيث أوضح ابن الجوزي أنه: "كثرت المنكرات ببغداد ولم يتجاسر أحد

---

(١) مختصر أخبار الخلفاء، ص ١٠٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٤٩؛ ابن العبري: تاريخ الزمان (نقله للعربية الأب إسحاق أرملة دار المشرق ١٩٨٦)، ص ١٩٦؛ أبو الفدا: المختصر، ج ٣، ص ٦٢؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٢٣، ص ٣٠٩؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤٠، ص ١٨٩؛ سير أعلام، ج ١٥، ص ٣٢٢؛ الغساني: المسجد المسبوك، ص ١٧٥؛ القلقشندي: مآثر الإنافة، ج ٢، ص ٥٧.

(٣) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ٣٨.

(٤) تاريخ الإسلام، ج ٤٠، ص ١٨٩؛ سير أعلام، ج ١٥، ص ٣٢٢ .

(٥) ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٣٠٥.

(٦) قبض عليه وقتل، ومثل العامة أيضاً بجثمانه، ثم أحرقوه، ورموا رماده في نهر دجلة. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨، ص ٣٥٨ .

(٧) من أعوانه أيضاً: عماد الدين أبو المظفر مسعود بن علي الصفار المعدل، كان ابن العطار يستشيره في جميع أموره، فقبض عليه وصودرت أمواله، ثم أفرج عنه. وتوفي عام ٥٨٦ هـ/ ١١٩٠ م. ابن الفوطي: مجمع الألقاب، ج ٢، ص ١٧٤-١٧٥.

(٨) شاهد عبد اللطيف البغدادي الأديب النحوي العراقي المعروف أثناء إقامته في دمشق عددا منهم عام ٥٨٥ هـ/ ١١٨٩ م، كما شاهد غيرهم من المضطهدين الذين شملهم جميعا ترحيب السلطان صلاح الدين. ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، ص ٦٣٧ .

ينكر وشاع الرفض"[١]، كما أكد ذلك أيضاً ابن شاهنشاه وانفرد بتوضيح دور ابن الصاحب قائلا: "ظهر ببغداد التشيع والإعلان بولاء أهل البيت ... وكان أستاذ الدار ابن الصاحب معروفا بذلك ... وأعلن بالتظاهر بلعنه معاوية ويزيد"[٢]، هذا كله جعل الذهبي يصف عهد ابن الصاحب بأنه : "تمكن وأحيا شعار الإمامية وأظهر الرفض وسب الصحابة"[٣]، وكان السب جهرا في الأسواق والمزارات والمشاهد[٤].

كان لتشجيع ابن الصاحب أثر كبير في زيادة أعداد الشيعة، ونستطيع أن ندرك حجم أعدادهم من كثرتهم داخل أماكن الوعظ والدرس في بغداد في المدرسة النظامية وعند باب بدر، حيث شكلت زيادة أعدادهم قوة ضغط على المدرس السني ليجبروه على القول بمعتقداتهم ومنها لعن الخليفة معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد وإلا هددوه بالقتل[٥]، كما ظهرت قوتهم أيضاً من وصف المؤرخ ابن القادسي[٦]، لاحتفال الشيعة بيوم عاشوراء في عام ٥٨٢هـ/ ١١٨٦م، حيث كان احتفالا مهيبا برعاية الخليفة الناصر لدين الله وأستاذ الدار ابن الصاحب، وفيه مارس الشيعة جميع طقوسهم بحرية، مثل سب الصحابة والسيدة عائشة في بغداد في المناطق المعروفة بهم في الكرخ ومحلة المختارة، وظهر اهتمام الخليفة بهم من خلال إفاضته الكثير من الخلع عليهم أثناء سيرهم من باب البدرية[٧] إلى باب حجرة الخليفة[٨]، أما منطقة الكرخ فكانوا يصيحون ما بقى كتمان وتزعمتهم ابنة " ابن قرايا " الذي قتل كما سبق وأوضحنا.

---

(١) شذور العقود، ص ٣١٣.

(٢) مضمار الحقائق، ص ١٤٦.

(٣) العبر، ج ٣، ص ٨٧؛ سير أعلام النبلاء، ج ١٥، ص ٣٦٩.

(٤) الصفدي: الوافي، ج ٢٧، ص ١٧٩.

(٥) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ١٤٦ .

(٦) محمد بن أحمد بن علي أبو عبد الله الكتبي المؤرخ: ينسب إلى قرية القادسية بين سامراء وبغداد، وهي غير القادسية الشهيرة التي بدأت بها فتوح العراق، كتب ذيلا أكمل فيه أحداث العراق بعد انتهاء المنتظم لابن الجوزي، وقد نقل منه الكثير من المؤرخين وصارت كتاباتهم هامة لأن كتابات القادسي الأصلية فقدت. وتوفي عام ٦٣٢ هـ/ ١٢٢٥ م ببغداد. المنذري: التكملة، ج ٣، ص ٣٩١ –٣٩٢؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤٥، ص ٥٤، ج ٤٦، ص ١٢٠؛ الصفدي: الوافي، ج ٢، ص ٨٣ .

(٧) باب البدرية: أحد أبواب دار الخلافة، وترتيبه الثالث من جهة الغرب بعد باب الغربة وباب سوق التمر. ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٥٠ –٢٥١ .

(٨) باب الحجرة: موضع بدار الخلافة ببغداد، أنشأها الخليفة المسترشد بالله، وهي دار عظيمة يخلع فيها على الوزراء. ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٥٠ –٢٥١ .

وأتاحت لها هذه الفرصة الثأر لوالدها حيث : "قامت هذه المرأة على دكة تحت منظرة الخليفة في الرياحنين وحولها ألوف من الرجال والنساء وهي تنشد أشعار العومي[١] وغيره وتسب عائشة وتقول العنوا راكبة الجمل وتذكر حديث الإفك والنبي صلي الله عليه وسلم بأقبح الشناعات"، وفي ختام وصف ابن القادسي لهذا الاحتفال أكد دور ابن الصاحب قائلا: "وكل ذلك منسوب إلى أستاذ الدار ابن الصاحب"[٢]. وصار بذلك عهد الخليفة الناصر لدين الله وأستاذ الدار ابن الصاحب العصر الذهبي للشيعة في بغداد، وانعكس هذا سلبا على السنة، حيث أجبر الشيعة فقهاء السنة على نشر معتقداتهم وإلا هددوهم بالقتل، فمن رفض الإذعان لهم اضطر إلى مغادرة بغداد، ومن بقي مال إليهم خوفا على حياته.

كان الفقيه الشافعي رضي الدين القزويني[٣] مثالا واضحا على سوء أحوال فقهاء السنة، حيث أجبره ابن الصاحب على مغادرة بغداد، وكان الفقيه قد عمل مدرسا بالمدرسة النظامية[٤] في بغداد منذ عام ٥٦٨ هـ/ ١١٧٢ م[٥]، وقام أيضاً بالوعظ عند باب بدر[١]،

---

(١) العوني أو العومي: شاعر الشيعة المشهور وسبق أن ذكرناه.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨، ص ٣٨٦ –٣٨٧ ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤١، ص١١ – ١٢.

(٣) أحمد بن إسماعيل بن يوسف الملقب برضي الدين أبي الخير الطالقاني القزويني: ولد بقزوين ودرس بها، زار بغداد مرتين: الأولى عام ٥٥٦ هـ/ ١١٦١م وعمل واعظا في المدرسة النظامية وجامع القصر ثم عاد إلى قزوين، والثانية عام ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م وعمل بالمدرسة النظامية، وكان يتبادل الوعظ مع ابن الجوزي عند باب بدر كل منهما يعظ أسبوعا، واهتم الخليفة بحضور وعظه من وراء ستار، ثم عاد لبلده قزوين عام ٥٨١هـ/ ١١٨٥م، وتوفي عام ٥٨٩ وقيل ٥٩٠هـ/١١٩٣م. ابن الجوزي: المنتظم، ج١٠، ص٢٠٠، ٢٤٠، ٢٤٤؛ ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ج ٢، ص ٢١٤ – ٢١٥؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨، ص ٤٤٣؛ المنذري: التكملة، ج ١، ص ٢٠٠؛ أبو شامة: الذيل على الروضتين (تحقيق إبراهيم شمس الدين دار الكتب العلمية بيروت ط الأولى ٢٠٠٢م)، ص ٥؛ الدمياطي: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد (تحقيق قيصر أبو فرح وآخرون، دائرة المعارف العثمانية الهند ١٩٧٩م)، ص٤٦؛ الذهبي: سير أعلام، ج ١٥، ص ٣٨٤–٣٨٥؛ الصفدي: الوافي، ج٦، ص١٥٨–١٥٩؛ ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية (صححه د الحافظ خان، عالم الكتب بيروت، ط الأولى ١٩٨٧م)، ج ٢، ص٢٤ – ٢٥؛ ابن أبي عذيبة: إنسان العيون، ص١٠.

(٤) المدرسة النظامية: أشهر مدارس بغداد البالغ عددها نحو الثلاثين، بناها الوزير السلجوقي نظام الملك عام ٤٥٧هـ/ ١٠٦٥م في الجانب الشرقي، وهدم لأجل بنائها العديد من الدور وبدأ أبي إسحاق الشيرازي التدريس بها في ذي الحجة عام ٤٥٩هـ/ ١٠٦٧م، وجددت المدرسة عام ٥٠٤هـ/ ١١١٠م ولها العديد من الأوقاف التي تنفق على الأساتذة والطلاب. ابن الجوزي: المنتظم، ج٨، ص٢٣٨، ٢٤٦؛ ابن جبير: الرحلة، ص٢٠٥ .

(٥) ابن الجوزي: المنتظم، ج١٠، ص ٢٤٤؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٣٩، ص٤٩؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج١٢، ص٢٧٣.

وحظى الفقيه بمكانة كبيرة في العراق ولهذا اختاره الخليفة الناصر لدين الله عند ولايته الخلافة ليكون رسوله إلى الموصل ليتسلم مبايعيتهم له بالخلافة[٢]، وظل الفقيه مستمرا في عمله بالمدرسة النظامية لأكثر من عشر سنوات حتى أجبره الشيعة على مغادرة العراق في عام ٥٨١ هـ/ ١١٨٥ م وعاد إلى بلده قزوين.

اختلف الفقيه رضي الدين مع الشيعة بسبب رفضه الإذعان لهم، وأورد كثير من المؤرخين تفاصيل خلافه معهم، وأكدوا أنه بدأ يوم عاشوراء[٣] وأنه غادر بعد ذلك مباشرة العراق، ولكنهم اختلفوا في تحديد العام، فقيل عام ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ م[٤]، و٥٨٠ هـ/ ١١٨٤ م[٥]، وأيضا عام ٥٨١ هـ/ ١١٨٥ م[٦].

حسم الرحالة ابن جبير هذا الخلاف، وجعلنا طبقا لروايته نؤكد الرأي الثالث بأنه كان يوم عاشوراء عام ٥٨١هـ/ ١١٨٥م، لقيامه بزيارة بغداد في شهر صفر عام ٥٨٠ هـ/ ١١٨٤ م بعد انتهائه من الحج في عام ٥٧٩هـ/ ١١٨٤م، وحرص ابن جبير- لشهرة الفقيه - على حضور درسه في المدرسة النظامية مرتين، في يومي الجمعة الخامس والثاني عشر من صفر[٧]، وهذا يؤكد بقاء الفقيه في بغداد بعد انتهاء عاشوراء عام ٥٨٠ هـ/ ١١٨٤ م لأكثر من شهر يحضر درسه على عادته، ولم تتغير أحواله كما سيحدث له عام ٥٨١ هـ/ ١١٨٥ م.

تعرض الفقيه رضي الدين يوم عاشوراء عام ٥٨١ هـ/ ١١٨٥ م لهجوم كاد أن يودي بحياته من قبل الشيعة الحاضرين درسه في المدرسة النظامية، حيث تجرأوا بسبب تشجيع

---

(١) هو باب البدرية السابق ذكره وكان يتبادل الوعظ فيه مع ابن الجوزي. ويذكر ابن جبير أنه يقع في ساحة قصور الخليفة، ويفتح الباب لدخول العامة وهو مفروش كله بالحصر. ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٠، ص ٢٤٠؛ ابن جبير: رحلته، ص ١٩٨؛ ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، ج ٢، ص ٢٤.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٤٩؛ الغساني: المصدر السابق، ص١٧٥ .

(٣) هو اليوم الذي قتل فيه الحسين بن علي بن أبي طالب بأمر من الخليفة الأموي يزيد بن معاوية (٦٠-٦٤هـ/٦٧٩ -٦٨٣م) في عام ٦١هـ/ ٦٨٠م، ولهذا صار يوم العاشر من المحرم يوم يحزن فيه الشيعة علي قتله وينقمون على قاتله. المسعودي: مروج الذهب (تحقيق محمد محي الدين المكتبة الإسلامية بيروت ١٩٤٨م)، ج٣، ص٦٣، ٧٠- ٧١.

(٤) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ١٤٦.

(٥) الدمياطي: المستفاد، ص ٤٦؛ الذهبي: سير أعلام، ج ١٥، ص ٣٨٤.

(٦) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٧٢؛ ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج ٢، ص ٢١٦، ج ٥، ص ٣١؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤١، ص ٥؛ الغساني: المسجد المسبوك، ص ١٩٦.

(٧) الرحلة، ص ١٩٠، ١٩٥ – ١٩٦.

السلطة الشيعية لهم على أن يصبغوا الدرس في المدرسة بالصبغة الشيعية، وحاولوا إجباره على إعلان شعائرهم في مثل هذا اليوم، ومنها لعن الخليفة الأموي يزيد بن معاوية (٦٠ – ٦٤ هـ/ ٦٧٩ – ٦٨٣ م)[١]، ولكن الفقيه لم يذعن لهم، وأثارهم بمدحه الخليفة يزيد بن معاوية وقوله عنه أنه: "إمام مجتهد"[٢]، ويعكس أسلوب مقاومة الشيعة للفقيه أنه كان هناك تخطيط مسبق لكيفية مواجهة رفضه بالقوة التي قد تودي بحياته، ويؤكد هذا ما ذكره ابن شاهنشاه عن أنه لم تكن هذه هي المرة الأولى التي حاول فيها الشيعة معرفة رأي الفقيه في الخليفة يزيد بن معاوية أثناء درسه بالمدرسة النظامية ولكنه كان "لا يرد جوابا"[٣]، ولهذا توقع الشيعة رفضه لعن الخليفة يزيد بن معاوية، وأحضروا معهم يوم عاشوراء قطع "الآجر"[٤]، أي الطوب، الذي سقط على الفقيه من كل جانب[٥]، مما يعكس قوتهم وكثرتهم، وكاد الفقيه أن يقتل[٦]، لولا تدخل حاجب الباب الذي أنهى الفتنة[٧] وأبعد الفقيه إلى مكان آمن بالمدرسة في بيت من بيوت الفقهاء[٨] ثم أعادوه ليلا إلى بيته[٩].

لم يكتف الشيعة بما حدث للفقيه بل أفتى بعضهم بمعاقبته بالضرب عشرين سوطا، واستندوا في فتواهم إلى الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (٩٩- ١٠١هـ/ ٧١٧ – ٧١٩م)[١٠]، حيث قيل إنه أفتي بضرب رجل لأنه لقب الخليفة يزيد بن معاوية بلقب أمير

---

(١) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ١٤٦؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨، ص ٤٤٣؛ أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ٥؛ الذهبي: سير أعلام، ج ١٥، ص ٣٨٥؛ ابن كثير: البداية، ج ١٣، ص ٩؛ ابن أبي عذيبة: إنسان العيون، ص ١٠.

(٢) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ٨، ص ٤٤٣؛ أبو شامة: المصدر السابق، ص ٥؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٣، ص١٠؛ ابن أبي عذيبة: المصدر السابق، ص ١٠

(٣) مضمار الحقائق، ص ١٤٦.

(٤) الآجر: جمع آجرة، اسم فارسي معرب وهو طبيخ الطين الذي يبنى به. ابن منظور: لسان العرب، ج١، ص ٧٨.

(٥) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ٨، ص ٤٤٣؛ أبو شامة: المصدر السابق، ص ٥ ؛ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٣، ص١٠؛ ابن أبي عذيبة :المصدر السابق، ص ١٠

(٦) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ١٤٦؛ الذهبي: سير أعلام، ج ١٥، ص ٣٨٥ .

(٧) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ١٤٦ .

(٨) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ٨، ص ٤٤٣؛ أبو شامة: المصدر السابق، ص ٥؛ ابن أبي عذيبة: المصدر السابق، ص ١٠.

(٩) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ١٤٦ .

(١٠) أشاع الشيعة عن الخليفة ميله إلى العلويين لعدله وورعه المعروف به ومنه قيامه برد أرض فدك إلى ورثة فاطمة ابنة النبي. محسن الأمين: أعيان الشيعة، ج ١، ص ٢٤.

المؤمنين، وقد نجا الفقيه رضي الدين من تنفيذ هذه الفتوى لشفاعة بعضهم له لأنه شيخ غريب عن بغداد[١].

أصر الشيعة على صبغ مجالس الفقيه رضي الدين بالصبغة الشيعية، وتكرر طلبهم له بلعن الخليفة يزيد بن معاوية في مجلس وعظه الثاني عند باب بدر، ولكنه أصر على موقفه، وانقذه من القتل هذه المرة وجود بعض مماليك الخليفة الناصر لدين الله لحضور الخليفة[٢] مجلسه. ومنذ ذلك الوقت أدرك الفقيه أنه لن يستطيع البقاء في بغداد مع قوة الشيعة، وخشي إذا استمر في مخالفتهم أن يتأذى أهله وتصادر أملاكه في قزوين، ولهذا قرر مغادرة بغداد[٣]، وطلب الإذن بالعودة إلى قزوين[٤]، وهذا يعكس بوضوح سوء أحوال السنة في عهد السلطة الشيعية خاصة أستاذ الدار ابن الصاحب الذي أذن له بمغادرة بغداد "من شدة بغضهم له"[٥].

سارع الفقيه بالعودة إلى بلده قزوين[٦]، وقيل إن الخليفة ندم على التصريح له بمغادرة بغداد خشية "التشنيع عليهم في البلاد" بأنه لم يخرج إلا بسبب تسلط المذهب الشيعي، وعندما سئل الفقيه عن سبب مغادرته بغداد عبر عن سوء أحوال السنة بقوله: "إنني قد شاهدت الموت الأحمر"[٧]، وقال أيضاً مؤكدا دور ابن الصاحب في زيادة قوة الشيعة: "معاذ الله أن أسكن في بلد يسب فيه أصحاب رسول الله وكان ذلك في أيام ابن الصاحب"[٨].

غادر أيضاً بغداد بسبب أستاذ الدار ابن الصاحب من فقهاء السنة الغرباء الفقيه الشافعي" شهاب الدين الطوسي"[٩]، الذي تحجج بالخروج للحج في عام ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م، واتجه إلى

---

(١) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ٨، ص ٤٤٣؛ ابن أبي عذيبة: المصدر السابق، ص ١٠.

(٢) كان الخليفة المستضيء بأمر الله يحضر أيضاً مجلس الفقيه عند باب بدر. ابن الجوزي: المنتظم، ج١٠، ص٢٤٠.

(٣) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ١٤٦.

(٤) ابن الدبيثي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢١٦؛ المنذري: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠١؛ الدمياطي: المصدر السابق، ص ٤٦.

(٥) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ١٤٦.

(٦) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ١٤٦؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٧٢؛ أبو شامة: الذيل، ص ٥؛ الذهبي: سير أعلام، ج ١٥، ص ٣٨٥.

(٧) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ١٤٧ .

(٨) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ٦، ص ١٥٩.

(٩) أبو الفتح محمد بن محمود الملقب بشهاب الدين الطوسي: ولد بطوس، وتنقل في بلدان المشرق لتلقي العلم ومنها نيسابور، ثم جاء إلي بغداد واستقر بها أكثر من عشر سنوات من ٥٦٧ – ٥٧٩هـ/ ١١٧١ – ١١٨٣م، اشتغل بالوعظ في مدارسها، وأجاز لعدد من علمائها منهم المؤرخ ابن الدبيثي ثم غادرها إلى مصر، وفيها علت مكانته وأسند اليه تقي الدين عمر بن شاهنشاه التدريس بمدارس العز، وظل بها حتي وفاته عام ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م، وحزن

مصر واستقر بها[١]، وسبق بذلك الفقيه رضي الدين القزويني، وإنما قدمنا الفقيه القزويني لأهميته ومكانته.

جاء الفقيه شهاب الدين إلى بغداد في عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م[٢]، واستقر بها وتزوج منها[٣]، وعمل بالوعظ والتدريس في المدرسة النظامية[٤] و"المدرسة التاجية[٥]"[٦].

وكان للفقيه آراء مختلفة في بعض المسائل المتعلقة بإمام الشيعة علي بن أبي طالب مما أدى إلى سوء العلاقة معهم.

المسألة الأولى: سئل فيها الفقيه الطوسي في عهد الخليفة المستضيء بأمر الله في عام ٥٦٩ هـ/ ١١٧٣ م أثناء عمله بالمدرسة التاجية في شهر المحرم[٧] عن رأيه في "ابن

عليه كثيرا وحمله أبناء السلطان، ولمكانة الفقيه الكبيرة لقب بالشيخ الإمام العالم العلامة شيخ الشافعية. ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج٢، ٨٤؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨، ص ٤٧٥؛ المنذري: التكملة، ج١، ص ٣٦٤ – ٣٦٥؛ أبو شامة الروضتين، ج ٤، ص ٢٧٤؛ الذهبي: سير أعلام، ج ١٥، ص ٤٩٦ – ٤٩٧؛ الغساني: المسجد المسبوك، ص ٢٥٨؛ ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، ج ٢، ص ٤٣-٤٤؛ السيوطي: حسن المحاضرة (تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى ١٩٩٧)، ج ١، ص ٣٤٣.

(١) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ١٤٧؛ المنذري: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٦٥؛ الذهبي: سير أعلام، ج ١٥، ص ٤٩٦.

(٢) كان الفقيه شهاب الدين وقت دخوله بغداد قد اتبع بعض الطقوس التي منع منها بعد ذلك بأمر من الوزير عضد الدين بن رئيس الرؤساء، مثل خروجه راكبا بغلة وواضعا طوقا بعنقها، كما كان يحمل سنجقا وغاشية، ربما ليضفي الهيبة على موكبه. ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٠، ص ٢٣٧؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨، ص ٤٧٥؛ أبو شامة: الذيل على الروضتين، ج ٥، ص ٢٩؛ الذهبي: سير أعلام، ج ١٥، ص ٤٩٦ الغساني: المسجد المسبوك، ص ٢٥٨؛ ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، ج ٢، ص ٤٣-٤٤ .

(٣) تزوج الفقيه شهاب الدين من أسرة قاضي القضاة جعفر بن عبد الواحد الثقفي – الذي عمل بمنصبه من عام ٥٥٦/ ١١٦١ م حتي وفاته ٥٦٣هـ/ ١١٦٧ م – من ابنته أرملة يوسف الدمشقي مدرس المدرسة النظامية، وتوفيت زوجته عام ٥٧٩ هـ/ ١١٨٤ م أثناء خروجه للحج. ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٠، ص ٢٠٢، ٢٢٢، ٢٢٦؛ ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ١٤٧؛ ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج ٢، ص ٨٤؛ المنذري: التكملة، ج ١، ص ٣٦٥؛ الذهبي: سير أعلام، ج ١٥، ص ٤٩٦.

(٤) ابن الدبيثي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٤.

(٥) المدرسة التاجية: تنسب إلى تاج الدين أبي الغنائم المرزبان بن خسرو مدبر دولة السلاجقة في عهد السلطان ملكشاه (٤٦٥– ٤٨٥ هـ/ ١٠٧٢– ١٠٩٢ م)، وببغداد أيضاً محلة ومقبرة بهذا الاسم. ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص٥.

(٦) ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٠، ص٢٤٢.

(٧) ذكر ابن الجوزي الواقعة في الخامس من المحرم وأوردها حفيده سبط ابن الجوزي يوم عاشوراء. المنتظم، ج ١٠، ص ٢٤٢؛ مرآة الزمان، ج ٨، ص ٢٩٨ .

ملجم"[١]، وهل يعد كافرا كما يرى الشيعة لقيامه بقتل علي بن أبي طالب أم لا، فاختلف الفقيه مع الشيعة وأبى أن يكفره فلم يتقبلوا رأيه وثاروا ضده وكان سلاحهم قطع الآجر التي انهالت عليه من كل جانب، وتمكن بفضل مساعدة بعض الأتراك من الهرب من المدرسة التاجية، ولم تنته ثورة الشيعة بل استعدوا في اليوم التالي في المدرسة لرجمه وحرقه بقوارير النفط، وانتظروه علي باب المدرسة، ومن الواضح أن الفقيه علم بما يدبر فلم يحضر، فقاموا بحرق فرش منبره ومجلسه، فصدرت الأوامر بابعاد الفقيه فترة حتي تهدأ ثائرة الشيعة[٢].

المسألة الثانية: كانت في عهد السلطة الشيعية المتمثلة في الخليفة الناصر لدين الله وأستاذ داره ابن الصاحب الذي اختلف معه الفقيه شهاب الدين الطوسي شخصيا، حول حقيقة الوضع المالي للإمام علي بن أبي طالب وهل كان فقيرا أم غنيا، وكان ابن الصاحب يرى أنه كان فقيرا لأكله خبز الشعير، وأوضح رأيه هذا للفقيه عندما قام بزيارة أستاذ الدار في بيته، فاختلف معه الفقيه وأعطى دليلا على غنى علي بن أبي طالب بأنه أدى زكاة كبيرة تقدر بأربعين ألف دينار[٣].

في حقيقة الأمر فإننا نرى أن كلا منهما محق في رأيه لأن الإمام علي بن أبي طالب اشتهر عنه الزهد[٤]، وهذا لا يعني أنه كان فقيرا ويكفي أن نقول إنه كان نصيبه من غنائم معركة المدائن عام ١٦ هـ/ ٦٣٧ م قطعة من بساط كسرى باعها بعشرين ألفا[٥]، وألمح ابنه الحسن إلى أنهم ورثوا ماله عند نفيه للشيعة مسألة اعتقادهم بأن والده سيبعث قبل يوم القيامة بأنه لو كان كذلك ما قسموا ماله[٦].

---

(١) عبد الرحمن بن ملجم المرادي: أحد الخوارج الذين رفضوا الصلح بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، فقرر قتل علي ابن أبي طالب في السابع عشر من رمضان عام ٤٠هـ/ ٦٦١م، وتوفي متاثرا بجراحه بعد يومين. الطبري: تاريخ الرسل والملوك (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف مصر، ط الرابعة)، ج٥، ص١٤٣-١٤٦؛ المسعودي: مروج الذهب، ج٢، ٤٢٣ – ٤٢٤، ٤٢٦ .

(٢) ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٠، ص ٢٤٢؛ سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٩٨؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٩، ص ٥٨ – ٥٩.

(٣) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ١٤٨.

(٤) لمزيد من التفصيل عن زهده انظر. المسعودي: مروج الذهب، ج ٢، ص ٤٣٢ – ٤٣٣؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ (تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى ١٩٨٧م)، ج٣، ص٢٦٥ .

(٥) الطبري: المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٢؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج ٧، ص ٦٧ .

(٦) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٦٥ .

ولهذا لا نعجب من حديث الإمام أحمد الذي أوضح أنه كان يربط الحجر على بطنه من الجوع ويتصدق بأربعين ألف دينار[١]، كما قال الفقيه شهاب الدين لكن عندما سأله ابن الصاحب عن مصدر معلوماته لم يتذكر هذا الحديث، وهنا أدرك الفقيه أنه: " قد خاطر بدمه، وأن هذه تكون من أعظم الحجج عليه، فادعى أنه قد مرض "، ثم تحجج برغبته في الحج وطلب الإذن، فأذن له ابن الصاحب، وعلل ابن شاهنشاه سبب موافقته بأنه كان "يبغضه ويقصده"، ولأن الفقيه شهاب الدين كان من المقربين لابن العطار، ولو بقى في العراق: لكان قد "هلك"[٢].

اتضح مما سبق أوضاع بعض كبار فقهاء السنة وخاصة الغرباء، غادروا بغداد لعدم قدرتهم على مخالفة معتقداتهم لصالح السلطة الشيعية.

على الجانب الآخر هناك من خشى على حياته، ولم يكن لديه مانع في مسايرة الشيعة، منهم ابن الفقيه رضي الدين القزويني، الذي عندما تعرض والده لاضطهاد الشيعة قام بسب الخليفة يزيد بن معاوية، وتجنب مقاومة الشيعة[٣].

كما تعد مسايرة ابن الجوزي للشيعة أكبر دليل على خوف فقهاء السنة، خاصة وهو أكبر فقيه سني حنبلي في العراق والأكثر شهرة في وقته، والذي كان يد الخليفة المستضيء بأمر الله في قمع الشيعة، وقد أكد ابن شاهنشاه هذا بقوله: "نقل عن ابن الجوزي الواعظ أنه قال: ما أكثر ما يسألون الناس عن معاوية ويزيد ... ما يكتفون مني في هذه الأيام أنني أرجم لهم أبا بكر وعمر وأنا مخاطر"[٤]، وأكد أيضاً الذهبي مسايرة ابن الجوزي الشيعة بقوله: "وضجع لهم ابن الجوزي"[٥]. وإن كان هذا هو حال أكبر فقيه سني فلنا أن ندرك وضع بقية فقهاء السنة في العراق في عهد أستاذ الدار ابن الصاحب، حيث أكد الصفدي أنهم لم يستطيعوا مقاومته بأي وسيلة خوفا من قوته[٦]، التي تجاوزت الحد ليس فقط في إجبار البعض على إعلان

---

(١) كان ذلك في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم. ابن كثير: البداية، ج ٧، ص ٣٣٣ .

(٢) مضمار الحقائق، ص ١٤٧ – ١٤٨.

(٣) كان يلقب بالرفيع. ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ١٤٦؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨، ص ٤٤٣؛ ابن أبي عذيبة: إنسان العيون، ص ١٠ .

(٤) مضمار الحقائق، ص ١٤٨ .

(٥) سير أعلام، ج ١٥، ص ٣٨٥ .

(٦) الوافي، ج ٢٧، ص ١٧٩ .

طقوس الشيعة، بل تعدى ذلك إلى إدانتهم وإقالتهم من مناصبهم، وهذا ما حدث مع قاضي القضاة "ابن الدامغاني"[١].

حرص قاضي القضاة على أن لا يقع في خطأ يدبره له ابن الصاحب، ولكن حرصه الشديد كاد أن يتسبب له في مشكلة أكبر مع الخليفة الناصر لدين الله.

ومن الواضح أن ابن الدامغاني قد اختلف مع ابن الصاحب فقرر أن يدبر له أسبابا لإدانته بمعاونة نائب الوزارة ابن البخاري – المطيع دائما له – ولهذا اجتهد قاضي القضاة بأن لا يمنحه فرصة إدانته، وقرر أن يلتزم في عمله بالقواعد المعروفة ولا يخرج عنها[٢].

تلقى ابن البخاري أمرا من الخليفة بأن يتولى قاضي القضاة رئاسة موكب[٣] لاستقبال شيخ الشيوخ عقب عودته من الموصل عام ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م[٤]، على أن يكون استقبالا حافلا لا تراعى فيه المراسم المعهودة، لعلاقة شيخ الشيوخ الوطيدة مع الخليفة، فأبلغ ابن البخاري قاضي القضاة بذلك، لكن لقلقه منه ومن ابن الصاحب قرر أن لا ينفذ الأوامر كاملة خشية أن يكون هناك تدبير لسبب إدانته فقرر أن يكون الاستقبال كما هو معهود، ولهذا عندما عبر الموكب إلى الجانب الغربي أصدر ابن الدامغاني أوامره بوقوف الموكب عند الموضع المعتاد الوقوف عنده[٥]، وحاول صندل الخادم إقناعه بمواصلة السير حتى ملاقاة شيخ الشيوخ لكنه رفض، وانتهى الجدل بينهما بوصول شيخ الشيوخ إلى الموضع الذي هم فيه فقام ابن الدامغاني والموكب جميعه بالسلام عليه[٦].

أدرك قاضي القضاة بعد عودته إلى بغداد أنه أخطأ في حق شيخ الشيوخ، وأن تصرفه معه قد يوقعه في مشكلة مع الخليفة لأنه "آذى قلب شيخ الشيوخ"، وقد يكون هذا سببا لعزله، فسار إلى رباط شيخ الشيوخ ليوضح حقيقة موقفه فقال له: "إن أستاذ الدار والنائب قد اتفقا

---

(١) علي بن أحمد بن علي أبو الحسن: من أسرة اشتهرت بولاية منصب قاضي القضاة، ولى أولا القضاء بربع الكرخ بعد والده في عام ٥٤٠هـ/١١٤٥م، ثم تولى منصب قاضي القضاة مرتين الأولي: منذ عام ٥٤٣- ٥٥٥هـ/ ١١٤٧ – ١١٦٠م، والثانية من عام ٥٧٠/ ١١٧٤م حتى وفاته ٥٨٣ هـ/١١٨٧م .ابن الجوزي: المنتظم، ج١٠، ص٢٥٠؛ المنذري: التكملة، ج١، ص٧٤؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤١، ص١٥٧ – ١٥٨.

(٢) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ١٥٩، ١٦١

(٣) ضم عددا من الخدم والحجاب والعدول. ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ١٥٩ .

(٤) أرسل الخليفة شيخ الشيوخ وبشير الخادم لعقد الصلح بين أمير الموصل والسلطان صلاح الدين، للمزيد انظر. ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٦٣ – ١٦٤ .

(٥) يسمى رأس السويقة عند قرية الشحنة. ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ١٥٩ .

(٦) المصدر نفسه، ص ١٥٩.

على عزلي، ويريدون أن يجعلوا لي حجة، وتقولوا للخليفة، فلما خرجت لخدمتك كنت كثير الخوف أن أعمل ما لا يجوز فيكون هو الطريق لهم"، ثم طلب منه أن يتوسط له عند الخليفة ويوضح له حقيقة موقفه، فاقتنع شيخ الشيوخ بكلامه وقال له: "لا والله أنت عندي معزور"(١).

من الواضح أن وساطته نجحت لأن ابن الدامغاني ظل في منصبه حتى وفاته عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، وليس هذا بجديد - في رأينا - فكثيرا ما توسط شيخ الشيوخ للمضطهدين من جانب أستاذ الدار ابن الصاحب(٢).

تحكم أستاذ الدار ابن الصاحب في بعض خدم الخليفة الكبار:

حظى بعض الخدم الكبار بمكانة كبيرة في الخلافة العباسية، وامتلكوا العديد من الإقطاعات والولايات، وكان لهم هيبة كبيرة تظهر من ملابسهم وأسلحتهم(٣) وقد عمل ابن الصاحب على الحد من نفوذ اثنين من كبار الخدم وهم:

خالص الخادم(٤):

يعد أكبر أمير ببغداد(٥)، ونال مكانة كبيرة لدى الخليفة الناصر لدين الله ومنحه العديد من الامتيازات، حيث كانت تربطه به علاقة وطيدة منذ أن كان صغيرا، حيث ساهم في تربية الأمير الناصر، ولهذا أقطعه بعد ولايته الخلافة منطقتي "لحف الجبل والبندنجين"(٦) في ذي القعدة عام ٥٧٥هـ/ ١١٨٠م، ثم ولاه النظر في "نهر ملك"(٧)، يولي فيه من يشاء من الموظفين، كما منحه بعض المراسم التي تضفي الهيبة عليه(٨).

---

(١) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ١٥٩ – ١٦١.

(٢) أوضحنا من قبل وساطة شيخ الشيوخ لصاحب الديوان داود وحاجب الباب ابن زيادة.

(٣) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ٣٩، ١٠٥.

(٤) مجاهد الدين أبو الفضائل خالص بن عبد الله الناصري الحبشي: كان جليل القدر ذا رأي سديد، كثيرا ما توسط بين الناس والخليفة، وكان له مجلس يتردد عليه الأكابر والأمراء، توفي في رجب عام ٥٨٤ هـ/ ١١٨٨ م. ابن الفوطي: مجمع الآداب، ج ٤، ص ٣٦٤؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤١، ص ١٧٩ .

(٥) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٩٨؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤١، ص ١٧٩.

(٦) لحف: بكسر أوله، سمي بذلك لأنه في لحف جبال همذان ونهاوند، ومنه البندنيجين وغيرها وفيه عدة قلاع حصينة. ياقوت: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٤ .

(٧) نهر الملك: كورة واسعة ببغداد ولها نهر كبير ينبع من نهر الفرات، يقال إنها تضم ثلاثمائة وستين قرية على عدد أيام السنة. وتقع قريبا من نهر صرصر. ياقوت: معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٢٤؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص ٣٥١، ٣٥٥ .

(٨) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ٣٧، ١٠٥.

كان نفوذ خالص الخادم بعيدا عن دار الخلافة، ولهذا لم يقلق أستاذ الدار ابن الصاحب، لكنه بدأ يخطط لإبعاده عندما استأذن خالص الخادم الخليفة في أن يعين وزيرا له في دار الخلافة، فعين "الأصيل بن الحوافي"، و لم ينته الأمر عند ذلك بل: " استأذن له في الدخول إلي الدار العزيزة وأن يكون له موضع بباب الحجرة الشريفة يجلس فيه لقضاء مهماته فأذن له "، فسبب هذا ضيقا كبيرا لابن الصاحب وقلق على منصبه، وقد عبر ابن شاهنشاه عن ذلك بقوله: "فكان أستاذ الدار ابن الصاحب يتأذى من هذه الأحوال، وكان هذا الخادم قد كبر أمره فخاف منه على منصبه، وأن تفضي الحال إلى أن يرتب ابن الأصيل أستاذ دار"[١].

واجهه ابن الصاحب نفوذ خالص الخادم ووزيره في دار الخلافة بقوة، فقام بإيقاف أي إجراءات تتعلق بمصالحه لحين أن يجتمع مع الخليفة ويقنعه كما هو معتاد بما يحقق مصالحه، وبالفعل نجح ابن الصاحب في أن يستصدر أمرا من الخليفة ضد مربيه خالص الخادم، وهو أن يتولى ابن الصاحب الإشراف على جميع أمور خالص الخادم ولا يتم له أمر في دار الخلافة إلا بعد مراجعته[٢]، وكان يهدف من ذلك مراقبته جيدا، ولا يجعله هو ووزيره ينفردان بأمر دون علمه وهذا كله يؤكد تحكمه في الخلافة.

أفسد ابن الصاحب خطط خالص الخادم، فتأكدت العداوة بينهما، وبالغ في تحكمه فيه وأدى ذلك إلى: "امتناع الناس من الدخول على خالص، وكان من أراد الدخول إليه لحاجة لم يقدم على ذلك إلا بإذن من أستاذ الدار"، ولم يكتف ابن الصاحب بذلك بل راقب مجالس خالص الخادم في دار الخلافة عن طريق شبكة من الجواسيس – وهو كثيرا ما استخدم هذا السلاح لمراقبة أعدائه – وعلم ميله لسماع الكثير من المغنيات، فأرسل إليه: " مثل هذه الحال لا تحتمل أن تكون في الدار العزيزة "، فاشتكي خالص الخادم للخليفة الذي أيد رأي أستاذ داره قائلا: "نعم ما فعل"، فترك خالص الخادم دار الخلافة نهائيا، وأقام في بيت له على نهر دجلة[٣]، ونجح ابن الصاحب في إبعاده عن دائرة نفوذه بدار الخلافة.

صندل الخادم:

أحد الخدم الكبار في الخلافة العباسية، كانت تربطه بالخليفة الناصر علاقة قوية ويحبه ويقدره، وقد أوضحنا من قبل أنه كان من الفريق المؤيد لولايته العهد في عهد والده المستضيء بأمر الله، وتأذى صندل بسبب موقفه من الأمير الناصر بعزله من منصب أستاذ دار عام ٥٧١ هـ/ ١١٧٥ م، وخلفه فيه ابن الصاحب.

---

(١) مضمار الحقائق، ص ١٠٥ – ١٠٦.

(٢) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ١٠٦ .

(٣) المصدر نفسه والصفحة .

اهتم الناصر بعد ولايته الخلافة بكل من ناصره، وكان صندل من أهمهم، لذا نراه قريبا من الخليفة يحضر مبايعته بالخلافة، واجتماعه لاختيار وزير له، وهذا أقلق ابن الصاحب وخشى منه بسبب خبرته السابقة في وظيفة أستاذ الدار، فخطط لإبعاده عن دار الخلافة : " فحسن في نفس الخليفة الإنعام في حقه، وحسن له أن رتبه في "نهر عيسي"[١] ناظرا، فترك صندل الخادم دار الخلافة في الجانب الشرقي، وعبر إلى الجانب الغربي[٢]، وتخلص بذلك ابن الصاحب من منافس قوي له في دار الخلافة .

علاقة ابن الصاحب ببعض الأعيان والأمراء

علاقته بالطبيب رضي الدولة بن التلميذ

تعكس علاقة ابن الصاحب بالطبيب "رضي الدولة أبي نصر"[٣] ابن طبيب العراق الأكثر شهرة "ابن التلميذ النصراني"[٤]، جانبا مهما من تحكمه في الخلافة، وهو وصول تسلطه إلى عامة بغداد وأعيانها المشهورين لتصل إلى حد إتهامه بالقتل ومصادرة ما يمتلكون، وهذا ما حدث مع الطبيب رضي الدولة، الذي لا نعلم عنه الكثير لأنه لم ينل شهرة والده، ولهذا أغفلت ذكره كثير من المصادر، ومن أورد عنه أسطرا قلائل ذكرها ضمن الحديث عن والده.

---

(١) ينبع من الفرات ويصب في دجلة، وينسب إلى عيسى بن علي بن عبد الله بن العباس، وهي كورة تضم قرى كثيرة. ياقوت: معجم البلدان، ج ٥، ص٣٢١ – ٣٢٢.

(٢) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص١٠٧ – ١٠٨.

(٣) ياقوت: معجم الأدباء، ج ٥، ص٥٩٠؛ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص٣٢٦

(٤) هبة الله بن صاعد بن هبة الله بن إبراهيم بن التلميذ الملقب بأمين الدولة: طبيب مشهور عمل بالمارستان العضدي ببغداد، اشتهر بشيخ الطب وبسلطان الحكماء وببقراط عصره وشيخ النصارى وقسيسهم، وتوفي في عام ٥٦٠ هـ/ ١١٦٥ م بعد أن قارب المائة. للمزيد انظر: ياقوت: معجم الأدباء، ج ٥، ص ٥٨٨ – ٥٩٢؛ ابن القفطي: إخبار العلماء (تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت ط الأولى ٢٠٠٥)، ص ٢٥٤ – ٢٥٦؛ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٣٢٠ – ٣٤٣؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦، ص ٦٩ – ٧٧؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول (تحقيق الأب أنطون اليوسعي، المطبعة الكاثوليكية بيروت ط الثانية) ١٩٥٨، ص ٢٠٩؛ تاريخ الزمان، ص ١٧٧ – ١٧٨؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٨؛ ص ٣٢١– ٣٢٧؛ سير أعلام النبلاء، ج ١٥، ص ١٢٨؛ الصفدي: الوافي، ج ٢٧، ص ١٦٥ – ١٦٨ .

اتضح من بعض الإشارات الواردة عنه أنه كان الابن الوحيد لوالده[١]، أما مكانته الطبية فقد أشار ابن أبي أصيبعه إلى أنه لم يكن في كفاءة والده[٢]، واختلف معه في هذا الرأي "عبد اللطيف البغدادي"[٣] الرحالة والطبيب العراقي وأكد أن رضي الدولة كان طبيبا ناجحا، لأنه كان شيخه الذي تعلم منه عبد اللطيف البغدادي الطب، ولهذا مدحه كثيرا فقال أنه: "يرى الأمراض كأنها من وراء زجاج"، وأنه لم ير: "من يستحق اسم الطب غيره"[٤]، ومع ذلك أصر ابن أبي أصيبعة على رأيه في رضي الدولة، وانتقد رأي عبد اللطيف البغدادي هذا[٥].

على أي حال مهما كانت مكانة الطبيب رضي الدولة فيهمنا أن نوضح أن كتابات عبد اللطيف البغدادي عنه[٦] تكاد تكون الكتابات المعاصرة الوحيدة له وفيها تحدث عن مقتله ومصادرة أمواله على يد أستاذ الدار ابن الصاحب.

وكان رضي الدولة قد ورث بعد وفاة والده – أمين الدولة ابن التلميذ عام ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م – ميراثا كبيرا شمل: "أموالا جزيلة وكتبا لا نظير لها في الجودة"[٧]، ولم نعلم عنه

---

(١) أشار ابن أبي أصيبعة إلى ذلك عدة مرات فقال: "كان لأمين الدولة ولد"، وفي موضع آخر: "وجدت كلاما لأمين الدولة في .. رسالة كتبها إلي ولده"، وأثناء حديثه عن ميراث ابن التلميذ قال: "فورث جميع ذلك ولده". وذكر أيضاً ابن العبري عند وفاة ابن التلميذ: "سأله ولده". ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٣٢٤، ٣٢٦؛ ابن العبري: مختصر الدول، ص ٢٠٩ – ٢١٠؛ تاريخ الزمان، ص ١٧٨.

(٢) ابن أبي أصيبعة :المصدر السابق ،ص ٣٢٤ – ٣٢٦؛ الصفدي: الوافي ،ج ٢٧، ص١٦٧.

(٣) موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف البغدادي: ولد ببغداد ودرس الأدب والطب وبرع في النحو واللغة وعلم الكلام، وزار مصر وألف عنها كتابه الإفادة والاعتبار، وزار أيضاً دمشق وحلب وبلاد الروم، وتوفي ببغداد عام ٦٢٩ هـ/ ١٢٣١ م. ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج ٤، ص ١٩٦؛ المنذري: التكملة، ج ٣، ص ٢٩٧ – ٢٩٨؛ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٦٣٤ – ٦٤٨؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤٥، ص ٣٥٣؛ الصفدي: الوافي، ج ١٩، ص ٧٣ – ٧٨؛ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (تحقيق محمود الطناحي، دار إحياء الكتب العربية القاهرة ١٩٦٤)، ج ٨، ص ٣١٣.

(٤) رواية عبد اللطيف البغدادي ينقلها عنه. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦، ص ٧٧ ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٨، ص ٣٢٧ .

(٥) عيون الأنباء، ص ٦٣٦ .

(٦) ألف عبد اللطيف البغدادي كتابا عن سيرة حياته تناول فيه شيوخه، ومنهم رضي الدولة بن التلميذ، وهذا الكتاب لم يصل إلينا واعتمد عليه بعض المؤرخين الذين لم يهتموا كثيرا بترجمة رضي الدولة فاختصروا منها الكثير، وكان ابن خلكان ممن استعان بكتابه هذا، وقال: " وقفت على كتاب جمعه شيخنا موفق الدين ... وجعله سيرة لنفسه "، كما اعتمد عليه ابن أبي أصيبعه، وقال " نقلت من خط الشيخ ... في سيرته التى ألفها ". (ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٣٢١، ٦٣٤–٦٣٥ ؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦، ص ٧٦ – ٧٧ ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٨، ص ٣٢٣–٣٢٧).

(٧) ياقوت: معجم الأدباء، ج ٥، ص ٥٩٠ ؛ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٣٢٦.

بعد ذلك سوى أنه توفي قتيلا وهو في الثمانين من عمره، ووصف عبد اللطيف البغدادي موته فقال إنه وجد مخنوقا في دهليز بيته في الثلث الأول من الليل[١]، وتمت مصادرة كل أمواله وكتبه النادرة التي ورثها عن والده ونقلت على اثني عشر جملا[٢] وقيل عشرة[٣]– مما يعكس كثرة عددها – إلى دار "المجد بن الصاحب"[٤]. وفي هذا إشارة قوية إلى اتهام ابن الصاحب بقتله وقد أشار إلى هذا الإتهام أيضاً د. مصطفي جواد أثناء تقديمه كتاب التكملة للمنذري، واعتبر قتل رضي الدولة من أدلة ظلم ابن الصاحب[٥]، وحزن عبد اللطيف البغدادي على شيخه وكان في نفسه عليه حسرات[٦].

وقد يكون عبد اللطيف البغدادي أضاف في كتاباته شيئا عن أسباب مقتل شيخه وعلاقته بابن الصاحب، لكن اختصار المؤرخين لروايته جعلتنا في حيرة، فتارة تدفعنا شخصية ابن الصاحب المحبة لجمع المال – والذي ظهر من حجم ثروته[٧] – إلى القول بطمعه في أموال رضي الدولة وكتبه، وتارة أخرى تدفعنا إشارة عبد اللطيف البغدادي أن رضي الدولة أسلم قبل مقتله[٨]، بالإضافة إلى أن والده ابن التلميذ كان يكني بأبي الحسن[٩]– مما يؤكد إسلام ابنه – تدفعنا إلى القول بأن لقتله دوافع دينية، أويكون ابن الصاحب أجبره على اعتناق المذهب الشيعي.

أزاح ابن الجوزي جانبا من الغموض في علاقة ابن الصاحب ورضي الدولة ابن التلميذ، وانفرد بذكر حادثة هامة تشير إلى جذور علاقة سيئة بين حاجب الباب (ابن الصاحب)[١٠]

---

(١) ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ٣٢٧ ؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٦، ص ٧٧ ؛ الذهبي: المصدر السابق، ج ٣٨، ص ٣٢٧.

(٢) ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ٣٢٦ – ٣٢٧.

(٣) الذهبي: المصدر السابق، ج ٣٨، ص ٣٢٧ .

(٤) ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ٣٢٧.

(٥) المقدمة، ج ١، ص ١٧ .

(٦) ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٦، ص ٧٧.

(٧) ترك ابن الصاحب بعد وفاته ثروة كبيرة مالية وعينية كبيرة. الذهبي: سير أعلام، ج ١٥، ص٣٦٩؛ الصفدي: الوافي، ج ٢٧ ؛ ص١٧٩ ؛ الغساني: المسجد السبوك، ص ٢٠٢؛ ابن أبي عذيبة: إنسان العيون، ص٨٦.

(٨) ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص٣٢٧ ؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٦، ص ٧٧ ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٨، ص٣٢٧.

(٩) ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ٣٢٠ .

(١٠) لم يذكر ابن الجوزي اسم ابن الصاحب في الحادثة واكتفى بذكر وظيفته حاجب الباب، وتأكد لنا من ابن الجوزي وغيره من المصادر أن ابن الصاحب كان حاجب الباب في ذلك الوقت، حيث تولى الوظيفة منذ شهر

وواحد من عائلة ابن التلميذ، أضر بسببها ابن الصاحب ضررا كبيرا وقت أن كان يعمل حاجبا لباب النوبي في عام ٥٦٥هـ/ ١١٧٠م. ومع أهمية هذه الحادثة فإن ابن الجوزي اكتفى بذكر لقب الأسرة " ابن التلميذ " على اسم الشخص الذي أضر بسببه ابن الصاحب.

يرجع لقب عائلة ابن التلميذ إلى الطبيب "معتمد الملك يحيي بن التلميذ"(١)، وبعد وفاته قام حفيده – ابن بنته – " هبه الله بن صاعد " الملقب بأمين الدولة بن التلميذ مقام جده ونسب إليه(٢)، وتوفي كما ذكرنا عام ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م، وقام من بعده ولده الطبيب رضي الدولة ولم نسمع عن أحد من أسرة ابن التلميذ غيره، لهذا نرجح أنه هو المقصود في رواية ابن الجوزي، خاصة أن ما حدث بينه وبين ابن الصاحب يمثل سببا هاما لانتقام ابن الصاحب منه فيما بعد .

اشترك حاجب الباب ابن الصاحب مع بعض قيادات الدولة لإتمام مراسم زواج مسيحي في جمادى الأولى عام ٥٦٥هـ/ ١١٧٠م(٣) دون موافقة ابن التلميذ والد العروس، وكان الخاطب "ابن مخلد" – بعد رفض ابن التلميذ زواجه من ابنته – لجأ إلى " الجاه " لإتمام مراسم الزواج، وهذا يشير إلى أنه كان ذا مكانة كبيرة تجعله يصل إلى كبار رجال الدولة، وساعدوه بالفعل، فأمده حاجب الباب ابن الصاحب بالقوة ممثلة في عدد من "غلمان الباب والفراشين"، ويهدف بذلك على الأرجح إلى منع ابن التلميذ إذا حاول إيقاف الزواج، وتمت مراسم الزواج الكنسية بموافقة العروس وبحضور "أستاذ الدار"(٤)، فاشتكى ابن التلميذ إلى الخليفة المستنجد بالله (٥٥٥ – ٥٦٦هـ/ ١١٦٠ – ١١٧٠م)، فسانده وألغى الزواج، ونرجح

جمادى الآخرة عام ٥٦٤ هـ/١١٦٨م عقب وفاة والده ابن الجوزي: المنتظم، ج١٠، ص٢٢٧ ؛ ابن الكازروني: مختصر التاريخ، ص ٢٣٦ ؛ الأربلي: خلاصة الذهب، ص ٢٧٨ ؛ الصفدي: الوافي، ج ٢٧، ص ١٧٨.

(١) معتمد الملك أبو الفضل وأبو الفرج يحيي بن صاعد النصراني البغدادي: كان أيضاً من الأطباء المشهورين في وقته، ويستشار برأيه، اختلفت الأراء حول تاريخ وفاته ذكر ابن الفوطي وفاته في ربيع الأول عام ٥٠٣هـ/١١٠٩م وتحديدا في همذان، بينما ذكر العماد الأصفهاني وفاته في عام ٥١٢هـ/ ١١١٨م. العماد: الخريدة، ج٤، ص١١٩؛ ياقوت: معجم الأدباء، ج٥، ص٦٢٥؛ القفطي: إخبار العلماء، ص٢٧٢؛ ابن الفوطي: مجمع الألقاب، ج٥، ص٣٢٩؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٣٨، ص٣٢٧ .

(٢) العماد: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٢٣ ؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٦، ص ٧٠

(٣) تناولنا هذه الحادثة من قبل في بداية البحث.

(٤) عضد الدين بن رئيس الرؤساء: تولى عمله منذ عام ٥٤٩ هـ/١١٥٤ م ولم يظهر من نص ابن الجوزي أنه نال جانبا من العقاب من الخليفة المستنجد بالله، ولكن أجمعت كثير من المصادر على أن الخليفة المستنجد كان عازما على عزله قبل وفاته عام ٥٦٦ هـ/١١٧٠م، ومن الراجح أن هذه الحادثة كانت من أسباب سوء العلاقات بينهما التي انتهت باشتراك عضد الدين في مؤامرة اغتيال المستنجد. ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٠، ص ٢٣٠ ؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٠٨ ؛ ابن الفرات: تاريخه، ج ٤، ص ١١٦ – ١١٧.

أنه سانده لمكانة والده المعروفة في الخلافة[١]، وفرض الخليفة عقوبات مشددة على معظم المشاركين في مراسم الزواج من المسلمين والمسيحيين، ونال حاجب الباب ابن الصاحب عقوبة مشددة بأن خفضت مكانته درجة ونزل إلى وظيفة نائب الباب، وحذفت منه جميع المراسم الخاصة بوظيفة حاجب الباب "فلا يجلس علي مخدة، ولا بين يديه دواة"، بالإضافة إلى منعه من "التوقيع"[٢] على كتب الشهود[٣].

هكذا ظهر كيف تأذى ابن الصاحب بسبب ابن التلميذ، ويعد هذا- في رأينا- سببا لكراهيته له ولرغبته في الانتقام منه عندما تتاح له الفرصة، ونرجح أنه قتله وصادر أمواله في فترة تحكمه في عهد الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥- ٥٨٣هـ/ ١١٨٠- ١١٨٧م) حيث تلائم أيضاً هذه الفترة عبد اللطيف البغدادي- الذي ولد عام ٥٥٧هـ/ ١١٦٢م[٤]- ليستوعب دراسة الطب على يد شيخه رضي الدولة.

ابن الصاحب وعلاقته ببيت رئيس الرؤساء

بيت رئيس الرؤساء عريق وقديم في العراق، يرجع أصل تسميته إلى لقب رئيس الرؤساء الذي منحه الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢ – ٤٦٧هـ/ ١٠٣١ – ١٠٧٥م) إلى وزيره علي بن الحسن بن المُسلمة (٤٣٧ – ٤٥٠هـ/ ١٠٤٦ – ١٠٥٩ م)[٥]، فاشتهر أبناء وأحفاد الوزير بهذا اللقب منذ القرن الخامس إلى السابع الهجري/ الحادي عشر إلى الثالث عشر الميلادي، ولعب أبناؤه دورا هاما في بغداد في الحياة السياسية[٦] والدينية والثقافية[٧].

---

(١) كان للطبيب أمين الدولة ابن التلميذ مكانة كبيرة في الخلافة العباسية. لمزيد من التفصيل انظر. العماد: الخريدة، ج ٤، ص ١٣٠ ؛ ياقوت: معجم الأدباء، ج ٥، ص ٨٩.

(٢) أسند التوقيع إلى ابن البراج وكان يعمل وكيلا بباب القضاة. ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٠، ص ٢٣٠؛ ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج ٥، ص ١١٠.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٠، ص٢٣٠؛ ابن الفرات: تاريخه ،ج ٤، ص١٠٢-١٠٣.

(٤) ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج ٤، ص ١٩٦؛ المنذري: التكملة، ج ٣، ص ٢٩٨.

(٥) ابن الجوزي: المنتظم، ج٨، ص٢٠٠؛ ابن الأثير: الكامل، ج٨، ص٤٢؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٣٠، ص٢٥٠.

(٦) سنوضح تفاصيل ذلك في الصفحات القادمة.

(٧) أنجب البيت العديد من العلماء الذين أثروا الحياة الدينية والثقافية في بغداد، وكانت بيوتهم قاعات لندوات يحضرها الكثير من الدارسين في العديد من العلوم منها الحديث والأدب. اشتهر منهم أبو الفرج بن المسلمة ت٤١٥ هـ/١٠٢٤م، وأبو جعفر بن المسلمة ت ٤٦٥هـ/١٠٧٧م الذي أطلق عليه الذهبي مسند الوقت، وتخرج على يديه الكثير من الدارسين، ومنهم المظفر بن المسلمة ت ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م، الذي كان العالم أبو اسحاق الشيرازي يحضر الندوات التي يقيمها في بيته، وتوفي وهو في بيته عام ٤٧٦ هـ/ ١٠٨٣م، وغيرهم الكثير. السمعاني: الأنساب،

شن أستاذ الدار ابن الصاحب حرب باردة على بعض أبناء البيت، هادفا إضعاف قوتهم، فنالهم منه القتل، والتهديد بالقتل، وصادر الكثير من أموالهم، وأدى ذلك إلى هروب بعضهم إلى بلاد الشام، وأقنع ابن الصاحب الخليفة الناصر لدين الله بكراهية البيت له، ليضفي على معاركه معهم الشرعية، واشتهر عداء ابن الصاحب لهذا البيت بين عامة أهل بغداد.

أوضح ابن شاهنشاه أن كراهية ابن الصاحب لهم ترجع لسنوات عديدة وأنه كان: "يعادي البيت قديما وحديثا"[١]، وهذا دفعنا إلى بحث جذور هذا العداء منذ نشاة البيت في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

يعد العداء المذهبي بين الشيعة والسنة – في رأينا – سببا مهما للعداء القديم بين ابن الصاحب وبيت رئيس الرؤساء، حيث كان الوزير رئيس الرؤساء بن المسلمة متعصبا ضد الشيعة وشهدت فترة وزارته (٤٣٧ – ٤٥٠هـ/ ١٠٤٦ – ١٠٥٩م) العديد من الفتن بين السنة والشيعة[٢]، تجعله – في رأينا – لا ينسى في ذاكرة الشيعة أهمها أحداث عام ٤٤٣هـ/ ١٠٥١م، حيث أصدر الوزير أوامره بمنع الشيعة من ممارسة طقوسهم، ولم يرضخ الشيعة لقراره، واشتعلت الفتن بين السنة والشيعة، وأسفرت عن مقتل أحد السنة، فقرروا تدمير المقابر الشيعية في مشهد باب التبن المعروفة بمقابر قريش[٣]، والمدفون بها اثنان من أئمة الشيعة، ونتج عن أعمال التخريب نهب وحرق هذه الأضرحة، واتهم داعي الدعاة الشيعي المعروف "بالمؤيد في الدين" الوزير رئيس الرؤساء بأنه المحرض الرئيسي وراء هذا العمل[٤]، ووصف ابن الأثير ما حدث بأنه: "أمر فظيع لم يجر في الدنيا مثله"[٥]، واستمر

ج١، ص ١٠٢، ١٦٣؛ ابن الجوزي: المنتظم، ج ٨، ص ١٦، ج ٩، ص ٧، ١٠٧ ؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٣، ص ٥٥٥ .

(١) مضمار الحقائق، ص ١٠٠.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر. ابن الجوزي: المنتظم، ج ٨، ص ١٣٢، ١٣٦، ١٤٠.

(٣) مقبرة هامة في بغداد، دفن بها العديد من العباسيين والبويهيين، وبها قبر عبد الله بن أحمد بن حنبل، كما دفن بها اثنان من أئمة الشيعة الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب. وحفيده محمد الجواد بن علي فضلا عن مقابر العديد من الشيعة. ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٠٦ ؛ ابن الأثير، ج ٨، ص ٥٩ .

(٤) سيرة المؤيد في الدين (تحقيق د محمد كامل حسين، دار الكتاب المصري ١٩٤٩)، ص ٥٦

(٥) الكامل، ج ٨، ص ٥٩.

عداء الوزير للشيعة طوال فترة وزارته[١]، وصار تعصبه الشديد ضدهم سببا لأن يضمروا له العداء سنوات طويلة، ويحاولوا الثأر من ورثته ومن بينهم ابن الصاحب.

وكانت خبرة بعض أبناء البيت السياسية الكبيرة – حيث تولوا العديد من المناصب في الخلافة[٢] – ومنها وظيفة أستاذ الدار[٣]– التي يتولاها ابن الصاحب، سببا مهما في رأينا – وراء كراهيته لهذا البيت، خاصة اذا علمنا أن وظيفة أستاذ الدار احتكرها بيت رئيس الرؤساء لأكثر من ثلاثين عاما متصلات (٥٣٥ – ٥٦٧هـ/ ١١٤٠ – ١١٧٢م)، تولاها ثلاثة من أحفاد رئيس الرؤساء، وصارت الوظيفة كأنها ميراث لهم يتولاها الابن الأكبر بعد أبيه[٤]، وأتاحت لهم هذه الفترة الطويلة أن يكون لهم خبرة لا يستهان بها في كل ما يتعلق بدور الخلافة ويعد هذا – في رأينا – دافعا قويا لقلق أستاذ الدار ابن الصاحب من البيت، وحرصه على تدميره طوال فترة ولايته.

بالإضافة إلى خبرة بيت رئيس الرؤساء في وظيفة أستاذ الدار، فقد تولى أيضاً عضد الدين محمد منصب الوزارة مرتين في عهد للخليفة المستضيء بأمر الله (٥٦٦ – ٥٧٥هـ/

---

(١) استمر الوزير في قمع الشيعة بعد أن حلت دولة السلاجقة السنة محل الدولة البويهية الشيعة في السيطرة على الخلافة في بغداد عام ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م، وكان عام ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م وبالا على الشيعة واجتهد الوزير في إيذائهم، وأسفر ذلك عن هروب الفقيه أبي جعفر الطوسي من بغداد عام ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م. للمزيد انظر. ابن الجوزي: المنتظم، ج٨، ص١٧١ – ١٧٣، ١٧٩؛ ابن الأثير: الكامل،ج ٨، ص٧١، ٧٩، ٨١.

(٢) منهم المظفر علي بن الوزير رئيس الرؤساء بن المسلمة الذي عمل مشرفا على ديوان الأبنية في الخلافة، وتولى نيابة الوزارة عدة أشهر من صفر إلى شعبان عام ٤٧٦ هـ/ ١٠٨٣م، واشتهرت داره باجتماع الكثير من العلماء، وتوفي عام ٤٩١ هـ/ ١٠٩٨م؛ ابن الجوزي: المنتظم، ج ٩، ص ٥ – ٦، ١٠٧؛ ابن الأثير: الكامل، ج٨، ص١٣٣، ١٨٨؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٤، ص ١٠٧ – ١٠٨ .

(٣) تولاها منهم "جمال الدولة أبو نصر محمد بن الوزير رئيس الرؤساء"، ولا نعلم المدة الدقيقة لولايته حيث أشارت بعض المصادر إلى ولايته عند وفاته عام ٤٩٤ هـ/١١٠٠ م، كما تولى وظيفة أستاذ دار "عز الدولة أبو الحسين علي بن محمد بن الحسن بن رئيس الرؤساء" وتولاها عدة أشهر كما يقول ابن الفوطي في عام ٥٣٠هـ/ ١١٣٥م. ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٢٠٥؛ ابن الفوطي: مجمع الآداب، ج ١، ص ٢٦٤ – ٢٦٥؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٤، ص ١٩٩.

(٤) تولى وظيفة أستاذ الدار أولا عز الدين أبو الفتوح عبد الله بن رئيس الرؤساء من عام ٥٣٥هـ/ ١١٤٠م حتى وفاته عام ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤ م، ثم خلفه ابنه الأكبر عضد الدين أبو الفرج محمد حتى عام ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م، ثم تولاها لمده عام ابنه الأكبر كمال الدين عبيد الله حتى عام ٥٦٧ هـ/ ١١٧١ م للمزيد انظر. ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٠، ص ١٥٩ ،٢٣٧، ٢٧٣ ؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٤٦؛ ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج ٣، ص ٥٢٧ – ٥٢٨، ج١، ص ٣٧٢ – ٣٧٧، ٥٤٣؛ ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد (دار الكتاب العربي بيروت)، ج٢، ص ١٢٦ – ١٢٧ ؛ ابن الفوطي: مجمع الآداب، ج ١، ص ٢٠٩ ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٧، ص ٣٦٣ – ٣٦٤، ج٤٠، ص١٣٢، ٢١٦ – ٢١٩ ؛ الصفدي: الوافي، ج ١٧، ص ٣٥٤ .

١١٧٠ – ١١٨٠م) الأولى: من شهر ربيع الآخرعام ٥٦٦ هـ إلي شوال عام ٥٦٧هـ/ ١١٧٠ – ١١٧١م، كما أسندت وظيفة أستاذ الدار إلى ابنه كمال الدين، وتحكما بذلك معا في تلك الفترة في شئون الخلافة، ثم حدثت ظروف أدت إلى عزلهما في شوال عام ٥٦٧هـ/ ١١٧٢م[١].

الثانية: في شهر ذي القعدة عام ٥٧٠هـ/ ١١٧٥م[٢]، وبعد أشهر قلائل اختير حاجب الباب ابن الصاحب ليتولى وظيفة أستاذ الدار في شهر صفر ٥٧١هـ/ ١١٧٥م[٣].

واختيار حاجب الباب ابن الصاحب لهذه الوظيفة، وعزله من وظيفته الأولى التي اكتسب فيها هو وأسرته خبرة طويلة يعد – في رأينا – ترقية له من ناحية، ومن ناحية أخرى يحتاج أن يبذل جهدا كبيرا ليثبت جدارته، ومع أن المصادر لم توضح دور الوزير عضد الدين بن رئيس الرؤساء في اختيار ابن الصاحب لوظيفة الأستاذ دار فإننا لا نستبعد أن يكون له دور في اختياره، أو على الأقل وافق على اختياره، ولابد وهو وزير الخليفة أن يؤخذ برأيه فيمن سيعين في وظيفة كان له فيها خبرة لا يستهان بها، ومع ذلك كان ابن الصاحب يكن لبيت رئيس الرؤساء حقدا دفينا كما سنوضح.

على أي حال عاصر الوزير عضد الدين أستاذ الدار ابن الصاحب وعملا معا في الخلافة لمدة قاربت من ثلاثة أعوام حتى مقتل الوزير في ذي القعدة عام ٥٧٣هـ/ ١١٧٨م[٤]، وإن كانت المصادر لم توضح شيئا عن العلاقة بينهما في تلك الفترة فإننا لاحظنا بعض الأمور التي تشير إلى أن علاقتهما لم تكن جيدة. منها اكتفاء ابن الصاحب بتوديع الوزير عضد الدين قبل ذهابه إلى الحج في دار الخلافة وعدم حضوره الاحتفال الذي حضره جميع أرباب الدولة في ذي القعدة عام ٥٧٣ هـ/ ١١٧٨ م[٥].

عكس أيضاً تحكم ابن الصاحب في منصب الوزارة – كما أوضحنا– في عهد الخليفة الناصر أنه تعرض لاضطهاد من قبل الوزراء السابقين في عهد المستضيء بأمر الله، وهما الوزير عضد الدين (٥٧٠– ٥٧٣ هـ/ ١١٧٤ – ١١٧٨ م) وابن العطار (٥٧٣ – ٥٧٥هـ/ ١١٧٨ – ١١٨٠م)، وهذا جعله يتحكم في الوزارة من ناحية، وينتقم من هؤلاء الوزراء ومن

---

(١) ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٢٣٣، ٢٣٧؛ ابن الدبيثي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٤٣؛ ابن النجار: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٢٦ – ١٢٧ .

(٢) ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٢٥٤.

(٣) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٢٥٦.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٠، ص ٢٧٣، ٢٨٠.

(٥) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٢٧٣.

أبنائهم من ناحية أخرى، ويؤكد هذا أنه بعد أيام قلائل من خلافة الناصر تخلص من ابن العطار، وحرض ابن الصاحب العامة علي التمثيل بجثمانه – كما أوضحنا – وفي المحرم ٥٧٦ هـ/ ١١٨٠ م قتل ابن الصاحب كمال الدين ابن الوزير عضد الدين، وبدأ به ثأره من بيت رئيس الرؤساء.

هناك العديد من الأسباب – في رأينا – وراء قرار ابن الصاحب بقتل كمال الدين تحديدا ليبدأ به ثأره من البيت، وليس أي فرد آخر، فلم يكن اختياره له عشوائيا وإنما كان مخططا ومدبرا. فكمال الدين هو أكبر أبناء الوزير عضد الدين، وكان يتمتع بشخصية قوية ولهذا لقب "بغضنفر"(١) بني المظفر بن رئيس الرؤساء(٢)، وكان له خبرة سياسية كبيرة جعلت ابن الصاحب يخافه(٣)، وقد علل ابن شاهنشاه سبب خوفه قائلا: "كان أستاذ الدار ابن الصاحب ... يخاف منه لأنه كان رجلا جبارا عارفا بأحوال الملك وتدبيره، وكان قد نشأ في دار الخلافة حاكما"(٤)، ولهذا استفاد والده عضد الدين من خبرته وأنابه عنه في وظيفة أستاذ دار(٥)، كما أشرف على ديوان الأبنية(٦)، وكان والده كثيرا ما يستشيره في شئون الحكم على الرغم من صغر سنه(٧)، ثم تولى كمال الدين منصب أستاذ الدار لمدة عام من ٥٦٦ – ٥٦٧ هـ/ ١١٧١ – ١١٧٢ م(٨)، ولهذا قلق ابن الصاحب على منصبه وقرر التخلص منه، هذا بالإضافة إلى أن قتله سيكون له أثر كبير على إضعاف بيت رئيس الرؤساء.

أصدر ابن الصاحب أوامره بالقبض على كمال الدين، ويقال أنه استخدم معه الحيلة(٩)، لما عرف عنه من القوة، وتم اعتقاله في "دار التاج"(١) إحدى دور الخلافة، ثم صادر ابن

---

(١) اسم من أسماء الأسد ويشير إلى القوة. السمعاني: الأنساب، ج ٩، ص ١٥٧.

(٢) ابن النجار: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٢٦ ؛ سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٨٦ ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤٠، ص ٢١٩.

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤٠، ص ٢١٩.

(٤) مضمار الحقائق، ص ١٠٠.

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤٠، ص ٢١٨.

(٦) الصفدي: الوافي، ج ١١، ص ٨٤.

(٧) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ١٠٠.

(٨) ابن الدبيثي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٤٣ ؛ ابن النجار: المصدر السابق، ج ٢، ١٢٦ – ١٢٧ ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤٠، ص ٢١٨ – ٢١٩ .

(٩) الذهبي: المصدر السابق، ج ٤٠، ص ٢١٩ .

الصاحب أمواله ومكتبته النفيسة وباعها بثمن باهظ، وظل يطالبه بالمزيد من الأموال طوال فترة اعتقاله[٢]، بهدف إضعاف قوة البيت الاقتصادية، ثم عهد ابن الصاحب إلى أحد العاملين معه من قبل في باب النوبي – وكان يتصف بالقسوة – مهمة تعذيب كمال الدين مما أفضى إلى موته[٣]، وقيل أيضاً إن ابن الصاحب رفسه برجله حتى مات[٤]، في شهر المحرم عام ٥٧٦ هـ/ ١١٨٠ م[٥].

تخلص ابن الصاحب من جثمان كمال الدين سرا، وألقى به ليلا في نهر دجلة – مما يعكس كراهيته الشديدة للبيت – ويهمنا أن نوضح أن الخليفة الناصر لدين الله كان بعيدا عن حقيقة ما يحدث في دار الخلافة على يدي أستاذ داره، ولما علم بوفاة كمال الدين ادعى ابن الصاحب أنه أصيب بمرض الذرب[٦] وأنه كان سببا لموته[٧]، وصدقه الخليفة لثقته الواسعة به في تلك الفترة المبكرة من خلافته.

كان ابن الصاحب صائبا في اختيار كمال الدين ليبدأ به انتقامه من بيت رئيس الرؤساء، حيث كان لمقتله أثر كبير على إضعاف البيت، وقد عبر ابن شاهنشاه عن ذلك بقوله: "كان موته أعظم الأمور على أهل بيته لأنه كان يخاف منه"، كما تأثرت أوضاع النساء، واضطرت

---

(١) التاج: دار مشهورة من دور الخلافة، وضع أساسها الخليفة المعتضد وبعد وفاته في عام ٢٨٩هـ/ ٩٠٢ م أتم بناءها ابنه المكتفي، واستخدم في بنائها بقايا القصر الفارسي المعروف بالقصر الأبيض. ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص٣، ٥.

(٢) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ١٠٠ ؛ الذهبي: المصدر السابق، ج ٤٠، ص ٢١٩

(٣) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ١٠٠ – ١٠١.

(٤) الذهبي: المصدر السابق، ج ٤٠، ص ٢١٩ .

(٥) اتفقت معظم المصادر على وفاته في هذا التاريخ، وانفرد ابن شاهنشاه بذكر وفاته في عام ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م، ولاحظنا أنه كان غير دقيق في كتابة كثير من التواريخ، ومن ناحية أخرى لن يترك ابن الصاحب كمال الدين عامين دون أن يتخلص منه. ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ١٠٠ ؛ ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج٣، ص ٥٤٣ ؛ ابن النجار: ذيل بغداد، ج ٢، ص، ١٢٧ ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤٠، ص ٢١٨– ٢١٩.

(٦) الذرب: المرض الذي لا يبرأ أو الجرح الذي لم يقبل الدواء. ابن منظور: لسان العرب، ج ٥، ص ٣٢ .

(٧) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ١٠٠ – ١٠١.

بعض بناته للزواج ممن هم أقل مستوي[١] وصار ضعف البيت مشهورا بين عامة أهل بغداد، وإذا شاهدوا أحدا منهم يقولون: "سبحان مزيل النعم ويذكرون قدم هذا البيت"[٢].

استمر أستاذ الدار ابن الصاحب في عدائه مع البيت واستخدم عدة أسلحة يجيد العمل بها، منها سلاح التجسس، فنجح في تجنيد أحد أبناء الوزير عضد الدين[٣] ليخبره بأحوالهم، ومن المؤكد أنه هدده ليقبل التجسس على أقاربه، كما استغل ابن الصاحب قربه من الخليفة الناصر ونجح في إقناعه بأن بيت رئيس الرؤساء "يبغضونه منذ زمن"[٤], ولم توضح المصادر أسباب عداء البيت للخليفة وبماذا أقنعه، ومن الراجح أنه استخدم العداء المذهبي سببا لكراهيتهم له.

لم يهنأ ابن الصاحب طويلا بإقناع الخليفة بعدائه للبيت، حيث مارس أحد المقربين من الخليفة وهو" أبو الحسن الكرخي " سياسة معاكسة لكرهه الشديد لابن الصاحب[٥]، فعمل على تغيير فكرة الخليفة عنهم: "آملا أن يعطف قلبه " تجاههم، وخاصة تجاه " علم الدين ابن أخي الوزير عضد الدين وزوج ابنته"[٦].

نجح أبو الحسن الكرخي في استمالة الخليفة تجاه علم الدين، وأخذ موافقته على إقامة علم الدين "دعوة"[٧] تقربا للخليفة، وأنفق عليها الكثير من الأموال، كما قدم فيها الكثير من الهدايا لكل المقربين من الخليفة، ونجحت سياسة الكرخي، وأبلغ علم الدين بعد انتهاء الدعوة بأن الخليفة: "يريد أن يجعل أستاذ الدار وزيرا ويجعلك أنت أستاذ الدار"، فأخذ علم الدين يستعد ليتولى وظيفة أستاذ دار[٨].

---

(١) أبلغ مثال علي ذلك هو ابنة كمال الدين، حيث كان والدها قد رفض زواجها من ابن قائد الجيش لأنه ليس بكفء للعائلة، واضطرت ابنته بعد مقتله إلى الزواج من جندي صغير في الجيش. ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص١٠١.

(٢) المصدر نفسه والصفحة.

(٣) ذكر ابن شاهنشاه أنه "عز الدين أبو منصور بن رئيس الرؤساء"، وأكد سبط ابن التعاويذي أنه كان للوزير عضد الدين ابن بهذا الاسم. ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص١٠١؛ سبط ابن التعاويذي: ديوانه، ص٢١٩.

(٤) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص١٠١.

(٥) سوف نعرض بالتفصيل العلاقة بين أبي الحسن الكرخي وابن الصاحب.

(٦) هو أحمد بن الحسن بن عبد الله، وكان كما ذكر ابن الدبيثي ختن الوزير عضد الدين والختن في اللغة زوج ابنته، توفي في عام ٥٩٤هـ/ ١١٩٧م. ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج٢، ص٢٢٨ ؛ ابن منظور: لسان العرب، ج٤، ص٢٦.

(٧) أي وليمة طعام وشراب. ابن منظور: لسان العرب، ج٤، ص٣٦١- ٣٦٢.

(٨) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ١١٣.

ما لبث أن خاب أمله سريعا، حيث كان ابن الصاحب قد نشر جواسيسه أثناء الدعوة وعلم بكل ما يدور بها: "ساعة فساعة"، فأرسل إلى علم الدين من يثق به وهو "محمود الشرابي"، وهدده بالصلب إذا قبل الوظيفة وأبلغه: "لولا أن أهل بغداد يعتقدون أني أقصد بيت رئيس الرؤساء ... كنت أتقدم بصلبك ومتى رجعت إلى مثلها أمرت بصلبك"(١).

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي فكر فيها الخليفة في ترقية ابن الصاحب إلى درجة الوزير(٢)، ولكن- كما اوضحنا من قبل- كان ابن الصاحب يخطط للجمع بين الوظيفتين بتحكمه في كل الوزراء في عهده، وهذا يفسر غضبه الشديد تجاه علم الدين، ولكن لاحظنا أنه اكتفى بتهديده بالصلب ولم يقم بالتخلص منه مثلما فعل مع كمال الدين، الذي قتله سرا ولم يعلم بأمره الخليفة، واضطر ابن الصاحب- في رأينا – إلى الاكتفاء بتهديده عن طريق وسيط لأن أمر علم الدين انتشر وشاع في الخلافة، عند الخليفة، وأبي الحسن الكرخي، والحاضرين الدعوة، كما وصل لعامة بغداد، وخشى ابن الصاحب على مكانته لدى الخليفة، فشهرة الموضوع انقذت علم الدين من القتل.

تحير علم الدين بين قبول الوظيفة أو الإذعان لتهديد ابن الصاحب، فقرر رفض الوظيفة، واستعان بأحد المقربين من الخليفة لتبرير موقفه(٣).

لم يتوقف عداء ابن الصاحب لبيت رئيس الرؤساء، وقرر التخلص من "عماد الدين"(٤) ابن الوزير عضد الدين، الذي كان له أيضاً خبرة في العمل في وظيفة أستاذ الدار، حيث كان ناب فيها عن والده(٥)، ونجح ابن الصاحب في إبعاده نهائيا عن العراق، دون أن يكون له دور في ذلك، بأسلوب عكس دهاءه وخبرته الكبيرة.

تحجج ابن الصاحب في البداية بأن عماد الدين غير أمين على أموال إخوته الأيتام أبناء الوزير عضد الدين، وأقنع قاضي القضاة ابن الدامغاني بأن يصدر أمرا بالقبض عليه ليظل هو بعيدا، ولا يُتهم أنه يقصد البيت، ويهدف إلى إضعافهم بمصادرة أموالهم، ومن ناحية

---

(١) المصدر نفسه، ص ١١٣ - ١١٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ١١٤.

(٤) علي بن محمد بن عبد الله: كان زاهدا متصوفا محبا للعلم، اضطر إلى مغادرة العراق، وأقام بدمشق وأكرمه السلطان صلاح الدين، وتوفي بها عام ٥٨٢ هـ/ ١١٨٦م. ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج ٤، ص ٥٠١ ؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨، ص ٣٩١ ؛ الصفدي: الوافي، ج ٢٢، ص ٣٢-٣٣.

(٥) العماد الأصفهاني: الخريدة، ج ١، ص ٦٣.

أخرى إذلال عماد الدين في محبسه ليقبل مغادرة بغداد، فطلب عماد الدين مهلة لدفع الأموال وأفرج عنه، ثم خطط ابن الصاحب لإبعاده نهائيا عن العراق[١].

فاختار شاعر العراق "سبط ابن التعاويذي"[٢] ليبلغ تهديده إلى عماد الدين وكان اختياره موفقا، لأنه كان يدرك العلاقة القوية التي تربط سبط ابن التعاويذي ببيت رئيس الرؤساء، فنشأ هو ووالده في خدمتهم، وكان شاعرهم[٣]، وديوانه يضم الكثير من القصائد المخصصة لمدح البيت، وكان نصيب عماد الدين منها عشرين قصيدة[٤]، مما يشير– في رأينا– إلى قوة العلاقة بينهما، وأنه سيبذل قصارى جهده للمحافظة على حياة عماد الدين.

اختار ابن الصاحب نائب الوزارة ابن البخاري – المطيع دائما له والمنفذ لكل أوامراه– لكي يبلغ تهديده إلى عماد الدين حيث كان تربطه علاقة قوية بالشاعر سبط ابن التعاويذي[٥]، فنفذ ابن البخاري خطة ابن الصاحب وقال لابن التعاويذي: "قل لعماد الدين يقول لك ابن البخاري خذ لنفسك، وأبصر لأمرك فأنت هالك، فإن أستاذ الدار ما قصده إلا نفسك، وقد جعل المطالعة بمال الأيتام طريقا إلى إتلاف نفسك ... فاعتقد عماد الدين بن رئيس الرؤساء أن ابن البخاري قد نصحه ... ولم يكن ... نصحا، بل نفذ أستاذ الدار إلى ابن البخاري وقال له: راسل عماد بكذا وكذا بحيث يهرب إلى جهة من الجهات"، فهرب عماد الدين بن رئيس الرؤساء من العراق إلى دمشق، ولم يكن معه سوى أحد المتصوفة[٦].

---

(١) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ١٥٠.

(٢) أبو الفتح محمد بن عبيد الله، كان والده نشتكين مولى بني المظفر بن رئيس الرؤساء، فأسموه عبيد الله، واشتهر سبط ابن التعاويذي بنسبته لجده لأمه " المبارك بن المبارك " الذي رباه، عمل في ديوان المقاطعات في الخلافة، وأصابه العمى آخر أيامه، وتوفي عام ٥٨٤ هـ/ ١١٨٨ م. ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج ١، ص٤٠١ – ٤٠٢؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص٤٦٦ – ٤٧٣؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤١، ص١٩٥– ١٩٦؛ الصفدي: نكت الهميان، ص٢٢٠؛ الوافي، ج٤، ص١١.

(٣) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ١٥٠.

(٤) سبط ابن التعاويذي: ديوانه، ص ١٢، ٣٥، ٣٨، ٤٩، ٥٩–٦٠، ٨٦، ١٣١ –١٣٢، ٢٠٥، ٢٠٩، ٢١٨، ٢٩١، ٣٠٠، ٣٤٧، ٣٨٦، ٣٩٤.

(٥) لاحظنا ذلك من اهتمام سبط ابن التعاويذي بابن البخاري في ديوانه حيث مدحه ببعض القصائد، كما حرص على رثاء ابن البخاري عند وفاته، كما أناب ابن البخاري ابن التعاويذي في إقطاعه. ابن التعاويذي: ديوانه، ص٧٠، ١٧٩ ،٢٣٩، ٢٥١، ٢٨٤، ٢٨٨، ٣٥٠ ؛ ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص١٥٠ .

(٦) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ١٥٠.

احتمى علم الدين بالملك الناصر صلاح الدين[١]، وأفاد هروبه كثيرا ابن الصاحب في خطته لإضعاف بيت رئيس الرؤساء، وأعلن ذلك صراحة في حديثه مع ابن البخاري فقال له: "متى هرب واحد منهم انقلع البيت جميعه"، كما أفاده أيضاً في تشويه سمعة البيت لدى الخليفة الناصر، حيث فسر هروبه للخليفة: "بأنهم ما يقدرون يرون زمانا هو فيه خليفة"[٢].

واصل ابن الصاحب سياسته لإضعاف البيت اقتصاديا، فقام بشراء أحد أملاك البيت بثمن بخس، وكان الخليفة قد أعجبه مكان يملكه أبناء "تاج الدين أخو الوزير عضد الدين"، وطلب منه شراءه، فدفع فيه فقط ثلاثمائة دينار، ولهذا: "كان أولاد تاج الدين يرون هذه الواقعة أنها من أستاذ الدار"[٣].

حقق ابن الصاحب نجاحا كبيرا في خطته لإضعاف البيت سياسيا واقتصاديا، وصارت دمشق مأوى للكثير منهم[٤]، كما اعتصم بعضهم برباط شيخ الشيوخ، وكان الخليفة الناصر قد أمر أن لا يتعرض أحد لمن اعتصم بالرباط[٥]، فكان الرباط ملجأ لكثير من المضطهدين من قبل أستاذ الدار– كما سبق أن أوضحنا– ولا نستبعد لجوء بعضهم إلى الرباط لجهوده السابقة لإضعافهم.

ابن الصاحب وعلاقته بابن الكرخي:

اختار ابن الصاحب الاستمرار في وظيفة أستاذ الدار بعد ولاية الناصر لدين الله ليكون قريبا منه، وأقنع الخليفة بذلك عندما عرض عليه الوزارة، وأنه لا تهمه الدنيا وما فيها ويكفيه فقط أن يظل بجواره[٦]، وحقق– في رأينا– من وراء سياسته المزيد من القوة والنفوذ في الخلافة، ولهذا كان حريصا على قربه منه، وعلى معرفة بقية المقربين من الخليفة، ومراقبة رأيهم فيه من خلال شبكة من الجواسيس تراقب مجالس الخليفة.

---

(١) لقى عماد الدين ترحيبا كبيرا من السلطان صلاح الدين حتى وفاته، وشيعه السلطان ودفن بجبل قاسيون عام ٥٨٢ هـ/ ١١٨٦م. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨، ص ٣٩١

(٢) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ١٥٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٩٩ .

(٤) ذكر عبد اللطيف البغدادي – الرحالة والأديب العراقي – أنه أثناء إقامته في دمشق وجد هناك جماعة من بيت رئيس الرؤساء. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٦٣٧ .

(٥) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ١٦١.

(٦) المصدر نفسه، ص ٣٩.

كان الخليفة الناصر مهتما ببعض الأشخاص يجلس ويخرج معهم كثيرا، وصاروا من المقربين لديه[١]، ومن بينهم "أبو الحسن الكرخي"، وكان يكره ابن الصاحب ويعمل جاهدا على إبعاده عن الخليفة، لأنه كان على صلة ببعض من شملهم اضطهاد ابن الصاحب، ولهذا كان يرى وجهه الحقيقي، ولكن الخليفة كانت ثقته فيه وقتها بلا حدود، ولهذا لم يصدق أي شكوى فيه.

ولهذا تعد محاولة ابن الكرخي أول محاولة حقيقية للتصدي لتحكم ابن الصاحب في الخلافة، ولهذا دارت بينهما حرب غير مباشرة انتهت بنجاح ابن الصاحب في الإيقاع بينه وبين الخليفة .

كان أبا الحسن الكرخي يعمل حاجبا في الديوان، وتوثقت علاقته بالخليفة فكان: "يقربه ويحب محاضرته ... كثير الجلوس عنده ... لا يفارقه"، ولهذا تجرأ وتحدث مع الناصر عن أستاذ داره ابن الصاحب، ناقدا سلطاته الواسعة التي منحها له الخليفة، والتي جعلته يبدو كأنه هو الخليفة، فقال له: "يا أمير المؤمنين اكتب له العهد هذا إن رضى، والله ما يرضى لأنه هو اليوم الخليفة، فكيف يرضى أن يكون ولي عهد، ستبصر كيف تكون الأحوال معه"[٢].

علم ابن الصاحب من خلال جواسيسه في مجلس الخليفة بما يدبره له ابن الكرخي، وواجه الأمر بدهائه المعهود، فلم يظهر له أنه علم شيئا عن حديثه، لأن في هذا إدانة له، بل عمل على تبرئة نفسه أمام الخليفة، بأن استأذنه في منح دار للكرخي تكون ملكا له، وأظهر بذلك للخليفة أنه يعمل لمصلحة ابن الكرخي، ليثبت له بأسلوب غير مباشر أنه ليس بالسوء الذي تحدث به عنه، كما عمل ابن الصاحب على استمالة ابن الكرخي ليمنع أحاديثه الأخرى عنه عند الخليفة، بأن أحسن معاملته ومنحه بعض الهدايا ليغير رأيه فيه، فضلا عن الدار التي وافق الخليفة على منحها له، بل قال له : "لا تنقطع عنا، أنت عندنا مثل الولد"[٣].

لم ينخدع الكرخي واستمر في الحديث مع الخليفة عن بعض المضطهدين ومعاناتهم من جانب ابن الصاحب، فتحدث عن " بيت رئيس الرؤساء "، حيث كان تربطه بهم علاقة وطيدة، فكان "والده"[٤] حاجبا للوزير عضد الدين، فعمل ابن الكرخي على تغيير الصورة السيئة التي

---

(١) منهم أبو العز ومحمد بن يحيي الفراش ونجاح الشرابي. لمزيد من التفصيل انظر. ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ١٠٨، ١١٠ – ١١١، ١٤٥، ١٩٦ .

(٢) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ١٠٨، ١١٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ١١٠.

(٤) كان والده عز الدولة أبو جعفر الحسن بن محمد الكرخي من الحجاب المخصصين لخدمة الوزير عضد الدين بن رئيس الرؤساء، ثم عينه الناصر حاجب المنبر بجامع القصر، ثم عزله بعدما ساءت علاقته بابنه، فتصوف وأقام

رسمها ابن الصاحب[١]، ونجح – كما سبق أن ذكرنا – في إقناع الخليفة باختيار "علم الدين بن رئيس الرؤساء" لمنصب أستاذ دار، وترقية ابن الصاحب لمنصب الوزير، وأبلغ الكرخي علم الدين بذلك ليستعد للمنصب، وقال له: "طيب قلبك ولتكن غدا على أهبة، فإن الخليفة يريد أن يجعل أستاذ الدار وزيرا ويجعلك أنت أستاذ دار"، فعلم ابن الصاحب بكل ما يحدث، ولأنه كان لا يرضيه منصب الوزارة لرغبته – في رأينا – الجمع بين المنصبين، أنهى الأمر– كما أوضحنا من قبل – بأسلوب لا يدينه، وازدادت كراهية ابن الصاحب لابن الكرخي، وعاتبه على تشجيعه لعلم الدين[٢].

تحدث أيضاً ابن الكرخي مع الخليفة الناصر عن نائب الوزارة ابن البخاري، لأنه كان صديقا له وشكى له تحكم ابن الصاحب، فحاول ابن الكرخي إقناع الخليفة بكفاءته فقال له: "ليس لك نائب وزارة مثله، ولكن ما له حكم، وإنما هو غلام بين يدي أستاذ الدار ... ولو مكنته كنت تري العجب"[٣].

فشل ابن الكرخي في التأثير على الخليفة، لثقته الكبيرة في أستاذ داره، بل على العكس خسر قربه منه، لأن ابن الصاحب قرر إبعاده نهائيا عن مجالسه، ودبر دليل إدانته عام ٥٨٠ هـ/ ١١٨٤ م، دون أن يظهر أنه هو من دبره، حيث: " وضع أستاذ الدار من نقل إلى الخليفة أن أبا الحسن بن الكرخي ... يقول عنه أشياء، ويذكر جميع ما يكون فيه من أحوال تجري في خلوة أو مجلس ويتحدث بذلك في الأسواق "، بمعنى آخر أظهره أنه لم يحترم الخصوصية التي بينه وبين الخليفة، وعد بذلك خائنا للأمانة، وهذا هو دليل إدانته، ولإثباته كان لابد من تقديم أحد الشهود من عامة بغداد، فجاء بأحد العاملين في السوق يبيع "البز"[٤] الذي شهد أمام الخليفة الناصر لدين الله، فاقتنع بإدانة ابن الكرخي، وقرر الخليفة: "منع ابن الكرخي من الدخول إليه"[٥].

لم يكتف ابن الصاحب بذلك، ودبر دليل إدانة آخر لعزل ابن الكرخي من منصبه وتشويه سمعته، فوجه إليه بنفسه اتهاما وهو أنه كان يأخذ هدايا وأموالا نظير حديثه مع الناس عن

برباط الزوزني وتوفي عام ٥٨٧ هـ/ ١١٩١ م .ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص١٠٨ – ١٠٩، ٢٠٩؛ ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج ٣، ص ٩٥ – ٩٦؛ ابن الفوطي: مجمع الآداب، ج ١، ص١٢٥.

(١) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ١١٣ .

(٢) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ١١٣ – ١١٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٩٥ .

(٤) البز: بفتح الباء الثياب. السمعاني: الأنساب، ج ٢، ص ١٨٦ .

(٥) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ٢٠٩ .

علاقته بالخليفة – وهذا الإتهام وجهه إليه ابن الصاحب بعد انتشار خبر إدانته – ولهذا: "تقدم أستاذ الدار إلى كل من أخذ منه ابن الكرخي هدية أو قرضا أو شيئا أن يطالبه به"، ثم أصدر قراره بعزله من الديوان[1]، ونجح بذلك ابن الصاحب في قمع أول محاولة حقيقية للحد من سلطاته في الخلافة، وفي التأثير علي ثقة الخليفة الناصر لدين الله به.

تطور العلاقة بين الخليفة الناصر وابن الصاحب:

(٥٧٥ – ٥٨٣ هـ/ ١١٨٠ – ١١٨٧ م)

توطدت العلاقة بين أستاذ الدار ابن الصاحب والخليفة الناصر لدين الله قبل ولايته الخلافة، منذ عهد والده الخليفة المستضيء بأمر الله (٥٦٦ – ٥٧٥هـ/ ١١٧٠ – ١١٨٠م)، من خلال الدور الذي قام به لاختيار الناصر وليا للعهد، وظل ابن الصاحب محتفظا بمكانته وبسلطاته الواسعة في الخلافة، وبعلاقته القوية مع الخليفة الناصر لعدة سنوات، لأنه وضع خطة محكمة اشتملت على عدة جوانب، اتضحت ملامحها لنا من خلال دراستنا لهذا الموضوع.

سياسة ابن الصاحب مع الخليفة الناصر:

اتضح من دراسة شخصية ابن الصاحب أنه كان يتصف بالدهاء والحنكة السياسية والدبلوماسية، وظهر ذلك في كثير من المواقف منها إسراعه بمبايعة الخليفة، وإصراره على بقائه معه في دار الخلافة في منصب أستاذ الدار، وهذه الصفات اكتسبها بفضل خبرته الطويلة في العمل لمدة قاربت على العشرين عاما (٥٦٤ – ٥٨٣هـ/ ١١٦٩ – ١١٨٧م)، هذا بالإضافة إلى أنه كان أكبر سنا من الخليفة الناصر، كل هذا جعل له قوة تأثير كبيرة عليه، و نجح ابن الصاحب في كسب ثقة الخليفة، حتى أنه ظل عدة سنوات لا يصدق أي شكوى تقدم في أستاذ داره، وظهر ذلك في علاقته بابن الكرخي.

استغل ابن الصاحب ثقة الخليفة الكبيرة بأن تعمد إخفاء الكثير من الحقائق، ومعظمها تتعلق بعلاقته بأعدائه وبأسلوب قضائه عليهم، ورأينا ذلك بوضوح في علاقته مع صاحب الديوان ابن داود ومع بيت رئيس الرؤساء.

كان لابن الصاحب قدرة كبيرة على إقناع الخليفة بما يحقق مصالحه، حتى أنه كان يقوم بعرض كثير من الأمور عليه لأخذ رأيه، على الرغم من تفويض الخليفة له بعمل ما يشاء، إلا أنه كان مهتما بأن يصدر الناصر القرار بعد أن يعرض الموضوع على الناصر بأسلوب يغاير الحقيقة، ليظهر أمام الناس أنه قرار الخليفة ولا دخل له به، في حين أنه خطط له جيدا

---

(١) المصدر نفسه والصفحة.

بما يحقق أهدافه، ومن ناحية أخرى ليحافظ على علاقته الوطيدة بالناصر لأنه يظهر أمامه أنه حريص على العمل برأيه، وظهر ذلك أثناء اختياره لمعظم نواب الوزارة.

بالإضافة إلى ذلك أحكم ابن الصاحب سيطرته على مجالس الخليفة، ليعلم كل ما يدور في غيابه، ليمنع ما قد يؤثر على مكانته، كأن يقتنع الخليفة بشخصة ما، وفكر في تعيينها في أحد المناصب التي يتحكم فيها، مثل منصب أستاذ الدار أو الوزير، أو أن يحاول أحد إبلاغ الخليفة بحقيقة ابن الصاحب، فيسارع ابن الصاحب بإبعاد كل من يرى في قربه من الخليفة خطرا عليه، بتدبير ودهاء غير ظاهر بحيث يظهر أمام الخليفة أنه لم يكن سببا في هذا الإبعاد. ورأينا ذلك في علاقته مع صاحب الديوان ابن الوكيل وابن الكرخي وبيت رئيس الرؤساء.

ساهم أيضاً التقارب المذهبي بين الخليفة الناصر وابن الصاحب في توطيد علاقتهما لاتفاقهما في اعتناق مذهب الشيعة الإمامية، وقيل إنه كان لابن الصاحب دور في تشيع الخليفة، وهذا دليل آخر يعكس قوة تأثيره عليه .

إبعاد الشخصيات القوية وذوي الخبرات:

لضمان استمرار مكانة ابن الصاحب وسيطرته على جميع الأمور في الخلافة كان لابد أن يكون واعيا لظهور أي شخصية قد يكون لها تأثير على مكانته، لهذا كان حريصا على إبعاد الكثير من الشخصيات القوية عن دار الخلافة، خاصة من كان له خبرة بوظيفته أستاذ الدار، مثلما فعل مع خالص الخادم وصندل الخادم وبيت رئيس الرؤساء ليضمن بقاءه بها، ولينفرد بالسلطة والنفوذ .

حرص أيضاً ابن الصاحب – كما أوضحنا – على إبعاد الشخصيات الدينية ذات التأثير السني القوي والتي تؤثر على رغبته في نشر المذهب الشيعي في بغداد ولهذا تخلص فورا من صاحب المخزن ونائب الوزارة ابن العطار، ثم أبعد الكثير من فقهاء السنة مثل رضي الدين القزويني وشهاب الدين الطوسي.

استعانة ابن الصاحب بالجواسيس:

ساعده ذلك كثيرا في المحافظة على مكانته وعلى قوة تحكمه في الدولة، فنقلوا إليه الأخبار في كثير من أنحاء بغداد، وانتشروا بين عامة الناس، وفي دار الخلافة، وخاصة في حضرة الخليفة الناصر، ونقلوا إليه كل ما يدور في كل مكان، ليتخذ وسائله الدفاعية تجاه أي هجوم ضده، وظهر ذلك في علاقته ببيت رئيس الرؤساء وابن الكرخي.

استخدام عامة بغداد لتحقيق مصالحه:

نجح ابن الصاحب في استخدام عامة بغداد وخاصة الشيعة منهم لتحقيق مصالحه، وكانوا سلاحا مهما كثيرا ما نجح به في مواجهة أعدائه، وترتيب أسباب إبعادهم دون أن يظهر أنه كان طرفا فيه، فقام العامة بالتمثيل بجثمان ابن العطار الذي أذل الشيعة في عهد المستضيء بأمر الله، كما قاموا بمضايقة حاجب باب النوبي ابن زيادة والتشنيع عليه حتى تمكن من عزله، كما شهدوا ضد ابن الكرخي وكانوا سببا لإبعاده عن الخليفة الناصر .

لاقت خطة أستاذ الدار ابن الصاحب نجاحا كبيرا لعدة سنوات، ونستطيع أن نقسم تاريخ العلاقة بينه وبين الخليفة الناصر لدين الله إلى مرحلتين :

المرحلة الأولى: تمتد خلال الخمس سنوات الأولى من خلافة الناصر لدين الله من (ذي القعدة ٥٧٥ – ربيع الآخر ٥٨٠ هـ/ ١١٨٠ – ١١٨٤ م)، وهذه المرحلة تعد انموذجا واضحا لقوة العلاقة بين الخليفة وأستاذ داره، وفيها ظهرت خطة ابن الصاحب وجنى ثمارها، ووثق الناصر به ثقة تامة، وكان يقدر مكانته ويرى أنه يليق به منصب الوزارة، ولهذا عرضها عليه – كما سبق أن أوضحنا – أكثر من مرة، ولما تكرر رفضه كافأه بالخلع المخصصة للوزير ووضعه في مكانة الوزير في العديد من المواكب الرسمية، ولهذا تحكم ابن الصاحب خلال تلك الفترة وبسط سلطته ونفوذه في الخلافة العباسية، وهذا ما عرضناه بالتفصيل أثناء الدراسة.

أما المرحلة الثانية: فقد بدأت منذ ربيع الآخر ٥٨٠ هـ/ ١١٨٤ م، وشهدت تحولا هاما في العلاقة بينهما، حيث تدرجت من القوة إلى الضعف وانتهت بإصدار الخليفة أوامره بقتل ابن الصاحب في ربيع الأول عام ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م وفيما يلي نوضح الأسباب التي دفعت الخليفة الناصر لدين الله إلى القيام بذلك .

تغير شخصية الخليفة واهتمامه بفرض رأيه وهيبته:

لاحظنا اختلافا كبيرا في شخصية الناصر لدين الله في المرحلة الثانية عن الأولى، فبينما كان في بداية خلافته تاركا كل الأمور المهمة إلى ابن الصاحب ينفرد فيها برأيه، ويقرر ما يشاء[١]، نجده صار أكثر نضجا وقوة، ولم يعد يسمح بوجود قوة أخرى بجواره، وكان ذلك من أهم الأسباب لقيامه بقتل ابن الصاحب، وقد لمسنا قوة الخليفة وبداية تمرده على ابن الصاحب من انفراده باتخاذ بعض القرارت المهمة.

---

(١) ابن الفوطي: مجمع الآداب، ج ٤، ص ٥٤٦ ؛ الذهبي: سير أعلام، ج ١٥، ص ٣٦٩ .

فبعد انتهاء وزارة ابن صدقة قام ابن الصاحب بترشيح أربعة أسماء، ليختار الخليفة من بينهم نائب وزارة، وكان من بين الأسماء عارض الجيش ابن الداريج وحاجب الباب ابن هبيرة، وعلى الرغم من تزكية ابن الصاحب لابن هبيرة إلا أن الخليفة اختار ابن الداريج، وانفرد بذلك للمرة الأولى منذ خلافته باختيار أحد كبار موظفيه وخالف رأي ابن الصاحب، وتولى ابن الداريج في شهر ربيع الآخر عام ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م[١]، ولهذا اتخذنا من هذا التاريخ بداية لتأريخ المرحلة الثانية في العلاقة بينهما، حيث كان خطوة هامة في طريق تحرر الناصر من تحكم ابن الصاحب، كما سجل بداية تغير شخصيته نحو القوة والنضوج .

اهتم الناصر أيضاً بفرض هيبته، وحرص على نشرها بين عامة بغداد، فكان يخرج من دار الخلافة متنكرا مع بعض المقربين منه أثناء الليل في أكثر المناطق المزدحمة مثل الدروب والأسواق، فكان الناس يعرفونه ويتهيبون لقاءه لمعرفتهم بمن معه، ومن يطل النظر إليه يقتل بأمر من الخليفة، ولذلك قيل عنه إنه هان عنده سفك الدماء، واشتهرت لذلك هيبته بين الناس[٢].

وقد صارت هذه السمات هي الغالبة على شخصيته الجديدة التي اشتهر بها بعد ذلك طوال فترة خلافته التي امتدت لأكثر من أربعين عاما (٥٧٥ – ٦٢٢هـ/ ١١٨٠ – ١٢٢٥م)، ولهذا اهتم بإبرازها معظم المؤرخين عند وفاته فتحدثوا كثيرا عن قوته وهيبته[٣] التي امتدت من المشرق إلى المغرب، ووصفوه بأنه كان يرهبه أهل الهند ومصر مثل أهل بغداد[٤]، ولذلك لقبوه بأسد بني العباس الذي تتصدع لهيبته الجبال[٥].

صاحب تغير شخصية الناصر واهتمامه بفرض هيبته، أنه لم يعد يقبل بوجود من يحاول فرض هيبته بجانبه، حتى وإن كان تربطه به علاقة وطيدة قديمة وقام بدور مهم معه في عهد والده المستضيء بأمر الله ليصل إلى ولاية العهد – ونقصد بذلك فريق الناصر الذي سانده وكافأة عند ولايته الخلافة– وكان من بينهم ابن الصاحب و"آل تنبه الشطرنجي"، الذي كافأه الناصر بمدينة واسط وجعلها إقطاعا له، كما ميزه بالتشريفات عن سائر الأمراء، وقد ظلت

---

(١) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ٢٣٦ – ٢٣٧.

(٢) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ١٤٥ ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤٥، ص ٨٤ ؛ الصفدي: الوافي، ج٦، ص١٩٢.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٤، ص ١٦٣ ؛ ابن أبي عذيبة: إنسان العيون، ص ٤ ؛ السيوطي: الخلفاء، ص٤٥٠.

(٤) ابن الساعي: مختصر أخبار الخلفاء، ص ١١١ ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤٥، ص ٨٩ ؛ السيوطي: الخلفاء، ص٤٥٠.

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤٥، ص ٨٩.

علاقتهما طيبة حتى عام ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م، ثم بدأ الشطرنجي يفرض قوته وهيبته، وظهر ذلك من منحه "قباء"[١] ذا لونين لأفراد قواته جميعا، ويبدو أن هذا كان أمرا غير مألوف، ولهذا صار حديث الناس في بغداد، فأقلق هذا الخليفة الناصر فقرر قتله، واتخذ من إفراطه في شرب الخمر سببا ظاهريا لقتله، وتجرأ بذلك الخليفة على التخلص من أصدقائه للمحافظة على هيبته، مما سيجعل طريقه سهلا فيما بعد للقضاء على ابن الصاحب، وهذا يفسر لنا سبب انزعاج ابن الصاحب لما بلغه خبر قتل الشطرنجي[٢].

اهتم الناصر بفرض هيبته أيضاً بين موظفي الخلافة فجعل من ابن هبيرة[٣] حاجب باب النوبي في عام ٥٨٢هـ/ ١١٨٦م[٤] مثالا وعبرة وعظة، تشير إلى قوته، وإلى قرب نهاية أستاذ الدار ابن الصاحب.

كان لحاجب باب النوبي – كما أوضحنا من قبل – مكانة كبيرة ويأتي في المرتبة الثالثة بعد الوزير وأستاذ الدار، وقد وقع اختيار الخليفة على ابن هبيرة تحديدا – كما يقول ابن شاهنشاه – لكراهيته له فكان: "يتمنى له عثرة حتى يؤذيه، وكان يفعل ذلك لبغضه لأستاذ الدار"، حيث كان ابن هبيرة من تلامذة ابن الصاحب وقت أن كان يعمل حاجبا لباب النوبي، وتربطهما علاقة وطيدة قديمة، لهذا أثنى عليه ابن الصاحب كثيرا، واختاره لوظيفة حاجب الباب في المحرم عام ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م، ثم فكر في ترشيحه لوظيفة نائب وزارة – ليستمر في تحكمه من خلاله – لكن الناصر لم يوليه[٥].

---

(١) القباء: نوع من الثياب الذي يلبس مشتق من ذلك لاجتماع أطرافه والجمع أقبية. ابن منظور: لسان العرب، ج١١، ص٢٧ .

(٢) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ٤٠ – ٤١، ١٩٦ – ١٩٧.

(٣) كمال الدين أبو الفتح أحمد بن ظفر بن يحيي بن هبيرة: من بيت كبير في بغداد، تولى جده الوزير ابن هبيرة الوزارة في الفترة من ٥٤٤ – ٥٦٠ هـ /١١٤٩ – ١١٦٤ م، عمل أحمد بوظيفة حاجب باب النوبي ثم تولى الإشراف على بعض البلاد المزيدية، وأجاز لبعض مؤرخي العراق مثل ابن الدبيثي والمنذري في علم الحديث، وتوفي عام ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م؛ ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٠، ص ١٣٧، ٢١٤ ؛ ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج٢، ص٢٦٤ ؛ المنذري: التكملة، ج ٣، ص ٩٥ ؛ ابن الفوطي: مجمع الآداب، ج ٤، ص ١٠١ – ١٠٢.

(٤) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ٢٥٦ ؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨، ص ٣٨٧.

(٥) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ٢٣٢، ٢٣٦ – ٢٣٧، ٢٥٦ – ٢٥٧ ؛ ابن الدبيثي: المصدر السابق، ج٢، ص٢٦٤.

اتخذ الخليفة من علاقة ابن هبيرة باحدى المغنيات فرصة لإشاعة هيبته وقوته من ناحية، وإظهار حرصه على النهي عن المنكر من ناحية أخرى، فراقب الناصر بنفسه ابن هبيرة[١]، ولما رآه خلا بالمغنية أمر مماليكه وقواته بإلقاء القبض عليهما وإذلالهما وضربهما، ولم يكتف بذلك بل شهر بهما وساروا بهما في جميع أنحاء بغداد في جانبيها الغربي والشرقي وفي الأسواق[٢]، وأدرك ابن الصاحب رسالة الخليفة الناصر ولهذا: "ضاق صدره وكثر خوفه"[٣].

ضعف ثقة الخليفة الناصر في أستاذ داره:

نجحت خطة ابن الصاحب خلال المرحلة الأولى من علاقته بالناصر (٥٧٥ – ٥٨٠هـ/ ١١٨٠ – ١١٨٤م) في اجتذاب ثقته التي كانت لا حدود لها، ولهذا حظى بمكانة كبيرة في الخلافة، واقتنع به الخليفة وبكفاءته وصدقه في كل شيء، ولذلك رفض أن يستمع لأقوال ابن الكرخي المغايرة تماما لرأيه عن ابن الصاحب.

ثم ضعفت ثقة الخليفة في أستاذ داره بسبب تغير شخصيته من ناحية، ولكثرة الشكاوى المقدمة في ابن الصاحب من ناحية أخرى، وظهر ذلك خلال المرحلة الثانية في العلاقة بينهما (٥٨٠ – ٥٨٣ هـ/ ١١٨٤ – ١١٨٧ م) فصدق الخليفة على سبيل المثال شكوى نائب الوزارة ابن صدقة ضد ابن الصاحب في عام ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م[٤]، وكتب في رده عليه: "ابن صدقة يُصدقه فيما ذكره"، وهذا يعد دليلا واضحا كما ذكر ابن شاهنشاه على: "تغير الخليفة علي أستاذ الدار"[٥].

لعب أيضاً بعض المقربين من الخليفة دورا مهما في تغير رأيه في ابن الصاحب وإضعاف ثقته فيه، ونجحوا بذلك فيما فشل فيه ابن الكرخي. ومن أهمهم "ابن يونس"[٦] الذي

---

(١) كان لابن هبيرة دار في الجانب الغربي من بغداد، وكان يقيم في الدار المقابلة له أحد أصدقاء الخليفة المقربين، وكان الخليفة يزوره كثيرا، فراقب ابن هبيرة من هذه الدار. لمزيد من التفصيل انظر. ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ٢٥٧ .

(٢) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ٢٥٨ ؛ سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ٨، ص ٣٨٧.

(٣) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ٢٥٨.

(٤) ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج ٣، ص ٤٠٦ .

(٥) مضمار الحقائق، ص ٢٣٥.

(٦) أبو المظفر جلال الدين عبيد الله بن يونس بن أحمد الحنبلي: درس الفقة على مذهب ابن حنبل، كما درس العديد من العلوم مثل الأصول والكلام والحديث في بغداد، وانتقل للدراسة أيضاً في همذان، ثم عاد إلى بغداد، وعمل بالعديد من الوظائف المهمة في الخلافة، ولما تولى الوزير ابن القصاب عام ٥٩٠ هـ/ ١١٩٤ م قبض عليه واعتقله، وظل معتقلا حتى وفاته في عام ٥٩٣ هـ/ ١١٩٦ م. ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج ٣، ص ٥٤٨ –

اكتسب ثقة الناصر، وأثبت له بالأدلة إدانة ابن الصاحب، وكان هذا من أهم الأسباب وراء قرار الناصر بقتله.

تولى ابن يونس العديد من الوظائف في دار الخلافة واقترب من الناصر ومن ابن الصاحب، الذي ولاه بعض المناصب – بحكم سيطرته على جميع الأمور في الخلافة – فجعله نائبا عنه في ديوان الأبنية في عام ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ م كما أسند ابن الصاحب إلى والد ابن يونس وكالة حجرة والدة الناصر، وبعد وفاة والده في عام ٥٨٠ هـ/ ١١٨٤ م تولى ابن يونس الوكالة من بعده[١]، ثم عين ابن يونس ناظرا في ديوان الزمام في رجب عام ٥٨٢هـ/ ١١٨٦م[٢].

على الرغم من إسناد ابن الصاحب الوظائف لابن يونس ووالده، فإنه كان يكرهه ويعاديه، ويرجع ذلك – في رأينا – إلى تحكم ابن الصاحب في شئون الخلافة من ناحية، وإلى طموح ابن يونس أن يحل محله من ناحية أخرى، وهذا اتضح بصورة جلية بعد مقتل ابن الصاحب، حيث رقاه الخليفة إلى العديد من الوظائف المهمة[٣].

خطط ابن يونس للقضاء على ابن الصاحب منذ عمله معه في ديوان الأبنية في عام ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢م، فحرص على تسجيل تجاوزاته، من ذلك سرقته الكثير من ثروة "العباسة"[٤] بعد وفاتها في هذا العام، وقد أكد ابن شاهنشاه ذلك بقوله: "وكان المتولي لهذه الأموال ... ابن الصاحب ... فيأخذ ما يريد ... وكان ابن يونس ... نائب أستاذ الدار في

٥٤٩؛ ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد، ج ٢، ص ١٦٩– ١٧٢ ؛ الذهبي: سير أعلام، ج ١٥، ص ٤٤٧ ؛ الصفدي: الوافي، ج ١٩، ص ٢٧٨ .

(١) ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ١٠٧، ١٩٨ ؛ ابن النجار: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٧٠ ؛ ابن أبي عذيبة: المصدر السابق، ص ٧٦ .

(٢)ابن الدبيثي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٤٩ ؛ ابن النجار: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٧٠ ؛ الصفدي: المصدر السابق، ج ١٩، ص ٢٧٧.

(٣) حظى ابن يونس بثقة الخليفة الناصر فأسند إليه الوزارة في شوال عام ٥٨٣ هـ/ ١١٨٨ م وكان أول وزير في عهده، وكل من سبقه عمل نائب وزارة، كما ولاه وظيفة أستاذ دار في عام ٥٨٧ هـ/ ١١٩١ م، ثم أسند إليه مرة ثانية الوزارة ولكن كنائب وزارة. ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٨٩ ؛ أبو الفداء: المختصر، ج ٣، ص ٧٤ ؛ الأربلي: خلاصة الذهب، ص ٢٨٣ ؛ الغساني: المسجد المسبوك، ص ٤٠٨ – ٤٠٩ .

(٤) إحدى جهات الخليفة المستضيء بأمر الله، وتركت ثروة كبيرة بعد وفاتها. والجهة تعني الزوجة أو المحظية. ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ١٤٩ ؛ ابن الساعي: نساء الخلفاء، ص ٤٣، هامش (١) .

ديوان الأبنية، وجميع هذه الحال يعلمها وهو يكتبها عنده، ويعده لوقت الحاجة ويجعله طريقا إلى قتل أستاذ الدار، وأستاذ الدار لا يعلم بذلك"[١].

لم يكتف ابن يونس بكتابة تجاوزات ابن الصاحب، بل كان حريصا هو وغيره من المحيطين بالخليفة علي إقناعه بمساوئه، فيذكر ابن شاهنشاه في أحداث عام ٥٨٠هـ: "وفيها كثر قول ابن يونس في أستاذ الدار ابن الصاحب، وكذلك "عز الدين الشرابي"[٢]، وجماعة ممن تحضر الخدمة الشريفة، وكانوا يرون أن متى أستاذ الدار رجع رجع الأمر إليهم"[٣].

استخدم ابن يونس كل ما جمعه من أدلة لإدانة ابن الصاحب حتي نجح في إقناع الخليفة بكل مساوئه، فقرر قتله، ولهذا كتب ابن الأثير بعد مقتل ابن الصاحب: "وكان الذي سعي به إنسان من أصحابه وصنائعه يقال له عبيد الله بن يونس، فسعي به إلي الخليفة وقبح آثاره فقبض عليه وقتله"[٤].

هكذا اجتمعت العديد من الأسباب وراء قرار الخليفة بقتل أستاذ الدار مجد الدين بن الصاحب، وقد لخص بعض المؤرخين أسباب قتله في قوة ابن الصاحب وتحكمه في الخلافة، وقابل ذلك ضعف سلطة الخليفة، فأراد استعادة مكانته خاصة بعد أن: "أشير عليه بقتله وإلا صعب أمره"[٥].

كان ابن الصاحب قد شعر بتغير الخليفة الناصر من خلال العديد من المواقف منها قتله الشطرنجي، وعقابه المبالغ فيه لابن هبيرة، ولهذا عندما استدعاه الخليفة إلى دار الخلافة: "علم أنه مقتول فاغتسل غسل الميت وودع أهله"[٦]، وقتل[٧] في شهر ربيع الأول عام

---

(١) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ١٤٩- ١٥٠ .

(٢) عز الدين الملك الرحيم نجاح بن عبد الله الشرابي: أهم المقربين من الخليفة الناصر لا يغيب عنه ساعة، لأنه كان قد أنقذ حياته قبل ولايته الخلافة في عام ٥٦٩ هـ/ ١١٧٣ م، فكان الخليفة يحفظ جميله معه، وجعل له مكانة كبيرة حتي وفاته في عام ٦١٥ هـ/ ١٢١٨م وحزن عليه الناصر حزنا كبيرا وأقام له جنازة مهيبة، ودفنه بمقبرة والدته . ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٢٨، ٣٢٧ ؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨، ص ٦٠٠ .

(٣) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ١٩٨.

(٤) الكامل، ج ٩، ص ١٨٩ .

(٥) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٨٩ ؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٢١، ص ٣٥٢ ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤١، ص ١٥-١٦ ؛ ابن كثير: البداية، ج ١٢، ص ٣٢٨ ؛ ابن أبي عذيبة: إنسان العيون، ص ٨٦.

(٦) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٢١، ص ٣٥٢.

(٧) قتله ياقوت الناصري في أحد دهاليز دار الخلافة، وعلقت رأسه على داره بالقرب من باب العامة، وألقى جسده في نهر دجلة. ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج ٥، ص ٩٤ ؛ سبط ابن الجوزي: المنتظم، ج ٢١، ص ٣٥٢؛ ابن الساعي: الجامع المختصر، ج ٩، ص ١٠٣ ؛ ابن الفوطي: مجمع الآداب، ج ٤، ص ٥٤٦ ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤١، ص ١٥ ؛ الصفدي: الوافي، ج ٢٧، ص ١٧٩.

٥٨٣هـ/ ١١٨٧م[١]، وكان في الحادية والأربعين من عمره[٢]، وترك ثروة كبيرة وصفت بأنها أكثر مما يوجد في دور الخلفاء، صادر معظمها الخليفة، وترك لأولاده الأملاك التي باسمهم[٣].

لم تمدنا المصادر بالمزيد عن أسرة ابن الصاحب وأولاده، وقد أشار سبط ابن التعاويذي إلى أنه كان له ولد يدعى كامل، وأنه كان ينوب عن والده وقت سفره[٤]، وأشار أيضاً ابن الساعي إلى أخ لابن الصاحب توفي عام ٦٠٤ هـ/ ١٢٠٧م وهو: "أحمد بن علي بن هبة الله بن الصاحب الملقب بالربيب"، ونود أن نوضح أن ابن الساعي أخطأ في نسبته إليه، حيث أجمع كثير من المؤرخين على أنه شخص آخر لا ينتمي لأسرة ابن الصاحب[٥]، التي انتهى دورها خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي بمقتل أستاذ الدار ابن الصاحب.

---

(١) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٨٩ ؛ ابن الدبيثي: المصدر السابق، ج ٥، ص ٩٤ ؛ سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ٢١، ص ٣٥٢ ؛ المنذري: التكملة، ج ١، ص ٦٦ ؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦، ص ٢٤٥ ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤١، ص ١٦٨؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٣٢٨.

(٢) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج٢١، ص٣٥٢ ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤١، ص١٦٨؛ العبر، ج٣، ص٨٧.

(٣) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ٢١، ص ٣٥٢ ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤١، ١٥ – ١٦ ؛ سير أعلام، ج١٥، ص٣٦٩ ؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٣٢٨ ؛ ابن أبي عذيبة: المصدر السابق، ص٨٦.

(٤) ديوان سبط ابن التعاويذي، ص ٤٦٩.

(٥) أوضحت المصادر أن هذا الملقب بالربيب سمي بذلك لتربيته مع الخليفة الناصر، وحظى لذلك بكرم الخليفة طوال حياته. ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ١١١ ؛ ابن الدبيثي: ذيل مدينة السلام، ج٤، ص ٥٥٧؛ المنذري: التكملة، ج٢، ص ١٢٤ ؛ ابن الساعي: الجامع المختصر، ج ٩، ص ٢٤٣ ؛ الصفدي: الوافي، ج ٧، ص ١٥٠ .

الخاتمة

تناولنا من خلال الدراسة دور أسرة ابن الصاحب في الخلافة العباسية خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وتوصلنا إلي عدد من النتائج كان من أهمها:

كان منصب حاجب باب النوبي أو حاجب الباب من المناصب الأمنية الهامة في الخلافة، له كيان وتنظيم دقيق، ويتصف من يتولاه بالهيبة والوقار، وحقق أثنان من الأسرة نجاحا واستقرارا كبيرا فيه، فاستمر هبة الله بن الصاحب عشرين عاما متصلات (٥١٤– ٥٣٤هـ/ ١١٢٠– ١١٤٠م)، وظل أيضاً ابنه أبو القاسم علي أربعة عشرة عاما متصلات (٥٥٠ – ٥٦٤هـ/ ١١٥٥ – ١١٦٩م).

أوضحت الدراسة أنه مع النجاح الذي حققته الأسرة فإن الحفيد مجد الدين بن الصاحب لم يكن موفقا في بداية ولايته لمنصب حاجب الباب عام ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م، حيث عاقبه الخليفة المستنجد بالله بتخفيض مكانته إلى نائب لتسرعه في اتخاذ بعض القرارت، ثم اختلفت أحواله للأفضل في عهد الخليفة المستضيء بأمر الله، واستمر في عمله حاجبا الباب، ثم رقاه الخليفة في صفر عام ٥٧١هـ/ ١١٧٦م إلى وظيفة أستاذ دار، وصار مسئولا عن جميع دور الخلافة، وعن أمور الخليفة والأسرة العباسية، ثم نجح مجد الدين بن الصاحب في إقامة علاقة جيدة– كان لها أبلغ الأثر في مستقبله – مع الأمير أبي العباس أحمد– الملقب فيما بعد بالناصر– بن المستضيء بأمر الله، وسانده سرا حتى اختاره والده وليا للعهد.

بينت الدراسة أن مجد الدين بن الصاحب حقق طموحه في السلطة والحكم مع ولاية الناصر لدين الله الخلافة في ذي القعدة ٥٧٥ هـ/ ١١٨٠م، حيث أبقى عليه أستاذ داره، وولاه جميع أموره لثقته الكبيرة فيه .

أظهرت الدراسة اهتمام الخليفة الناصر وابن الصاحب بنشر المذهب الشيعي وإجبار فقهاء السنة على القول بمعتقادتهم، مما اضطر بعضهم إلى مغادرة بغداد.

كشف البحث الخطة المحكمة التي وضعها ابن الصاحب للمحافظة على مكانته وفيها حرص على استمرار ثقة الخليفة الناصر به، وعلى إبعاد الشخصيات القوية وذوي الخبرات، كما اهتم بعامة بغداد واستعان بهم كثيرا، ووضع شبكة كبيرة من الجواسيس لمراقبة مجالس الخليفة، وأحبط أي محاولة لإبعاده عن مكانته .

أوضحت الدراسة نجاح ابن الصاحب في فرض سيطرته على كبرى الوظائف في الخلافة، وفي ابعاد خدم الخليفة الكبار عن دار الخلافة، وامتدت سطوته إلى بعض أعيان بغداد منهم رضي الدولة بن التلميذ وبيت رئيس الرؤساء .

أظهرت الدراسة في ختام نتائجها أسباب سوء العلاقة بين الخليفة وابن الصاحب، والتي انتهت بإصدار الخليفة أوامره بقتله، وتتلخص في تغير شخصية الناصر وميله لفرض رأيه وهيبته، في الوقت الذي ضعفت فيه ثقته في ابن الصاحب، خاصة بعد أن أثبت إدانته بالأدلة بعض المقربين من الخليفة .

المصادر والمراجع

أولا – المخطوطات العربية :

الشطنوفي (نور الدين علي بن يوسف اللخمي ت ٧١٣ هـ/ ١٣١٣ م):

١- بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في بعض مناقب الإمام عبد القادر، محفوظ برقم ٣٣ تاريخ، دار الكتب القومية، مصر.

المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤١ م):

٢ – شذور العقود في ذكر النقود، نسخة مصورة من جامعة الملك سعود عام ١٩٥٧م، ثم قامت بتصوريها كما هي مكتبة المصطفى الإلكترونية.

ثانيا – المصادر المطبوعة :

أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن المقدسي ت ٦٦٥هـ/ ٦٦ ــ ١٢٦٧ م) :

٣ – كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، علق عليه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى ٢٠٠٢ م.

٤ – تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل علي الروضتين، علق عليه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى ٢٠٠٢ م.

أبو الفداء (عماد الدين إسماعيل ت ٧٣٢ هـ/ ٣١ ــ ١٣٣٢ م):

٥ – المختصر في أخبار البشر، مكتبة المتنبي القاهرة، بدون تاريخ.

٦- تقويم البلدان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط الأولى ٢٠٠٧.

ابن أبي أصيبعة (موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم ت ٦٦٨ هـ/ ١٢٦٩م):

٧- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق محمد باسل، دار الكتب العلمية بيروت ط الأولى ١٩٩٨ م.

ابن أبي عذيبة (شهاب الدين أحمد بن عمر المقدسي ت ٨٥٦ هـ/ ١٤٥٢ م):

٨ – إنسان العيون في مشاهير سادس القرون، تحقيق د إحسان الثامري وآخر، دار ورد للطباعة والنشر الأردن ط الأولى ٢٠٠٧ م.

ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم ت ٦٣٠ هـ/ ٣٢ ــ ١١٣٣ م):

٩- الكامل في التاريخ، دار الفكر، بيروت ١٩٧٨م. طبعة أخرى محققة: تحقيق أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية بيروت ط الأولى ١٩٨٧.

الأربلي (عبد الرحمن سُنبط قَنيتُو ت عام ٧١٧ هـ/ ١٣١٧ م):

١٠- خلاصة الذهب المسبوك، تصحيح مكي جاسم، مكتبة المثنى بغداد ١٩٦٤ م

ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد الكتامي ت ٦١٤ هـ/ ١٢١٧ م):

١١- رحلة ابن جبير، دار صادر، دار بيروت، بيروت ١٩٦٤ م
ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ت ٥٩٧ هـ/ ١٢٠٠ م):
١٢- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دارصادر بيروت، مصورة من ط الأولى دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن ١٩٣٩ م.
١٣ - شذور العقود في تاريخ العهود، تحقيق د أحمد عبد الكريم وآخر، مركز نجيبويه، توزيع مكتبة المتنبي القاهرة، ط الأولى ٢٠٠٧ م.
ابن حجر (شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني ت ٨٥٢ هـ/ ١٤٤٨ م) :
١٤ - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار إحياء التراث العربي، بيروت تحقيق السيد هاشم الندوي، بدون تاريخ.
الخطيب البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت ت ٤٦٣ هـ/ ٧٠ - ١٠٧١م):
١٥- تاريخ مدينة السلام، تحقيق د بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط الأولى ٢٠٠١ م.
ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م):
١٦ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د: إحسان عباس، دارصادر، بيروت ١٩٧٨م .
ابن الدبيثي (أبو عبد الله محمد بن سعيد ت ٦٣٧ هـ/ ١٢٣٩م):
١٧ - ذيل تاريخ مدينة السلام، تحقيق د/ بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط الأولى ٢٠٠٦ م.
ابن دحية (أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي بن محمد ت ٦٣٣ هـ/ ١٢٣٦م):
١٨- النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، تحقيق مديحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، ط الأولى ٢٠٠١ م.
ابن الدمياطي (أبو الحسين أحمد بن أيبك بن عبد الله ت ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨م) :
١٩- المستفاد من ذيل تاريخ بغداد، تحقيق د قيصر أبو فرح، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الهند، ط الأولي ١٩٧٩ م.
الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ت ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧ م):
٢٠- سير أعلام النبلاء، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن العمري، دار الفكر بيروت، ط الأولى ١٩٩٦ م.
٢١- العبر في خبر من غبر، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى ١٩٨٥ م.

٢٢ – تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق د عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط الثانية ١٩٩٠ م.
ابن رجب (الحافظ عبد الرحمن بن أحمد ت ٧٩٥ هـ/ ٩٢ – ١٣٩٣ م):
٢٣– الذيل على طبقات الحنابلة، تحقيق د عبد الرحمن بن سليمان، مكتبة العبيكان الرياض، ط الأولى ٢٠٠٥ م.
ابن الساعي (أبو طالب علي بن أنجب تاج الدين ت ٦٧٤هـ/ ٧٥ – ١٢٧٦م):
٢٤– الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، تحقيق د مصطفى جواد، المطبعة السريانية الكاثوليكية، بغداد ١٩٣٤ م .
٢٥– مختصر أخبار الخلفاء، المطبعة الأميرية، القاهرة الطبعة الأولى ١٣٠٩ هـ
٢٦– نساء الخلفاء المسمى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء، تحقيق د مصطفى جواد، دار المعارف، سلسلة ذخائر العرب ٢٨، القاهرة ط الثانية ١٩٩٣ م.
سبط ابن التعاويذي (أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله ت ٥٨٤ هـ/ ١١٨٨م):
٢٧– ديوان ابن التعاويذي، صححه د. س. مرجليوث، مطبعة المقتطف مصر ١٩٠٣م.
سبط ابن الجوزي (أبو المظفر يوسف بن قزأوغلي ت ٦٥٤ هـ/ ١٢٥٦ م):
٢٨– مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، مطبوعات مجلس دائرة المعارف العثمانية الدكن الهند ط الأولى ١٩٥٢م، وطبعة أخرى محققه، تحقيق إبراهيم الزيبق، دار الرسالة العلمية، دمشق، ط الأولى ٢٠١٣ م.
السبكي (أبو نصر عبد الوهاب بن عبد الكافي ت ٧٧١ ـ/ ١٣٦٩م):
٢٩– طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود محمد الطناحي وآخر، دار إحياء الكتب العربية، بدون تاريخ.
السمعاني (أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور ت ٥٦٢ هـ/ ١١٦٦ م):
٣٠ – الأنساب، تحقيق عبد الرحمن بن يحيى، مكتبة ابن تيمية القاهرة، ط الثانية ١٩٨٠م.
السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت ٩١١ هـ/ ١٥٠٥ م):
٣١ – تاريخ الخلفاء، المكتبة التجارية الكبري القاهرة، الطبعة الرابعة ١٩٦٩ م.
٣٢ – حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، وضع حواشيه خليل المنصور ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى ١٩٩٧ م.
ابن شاهنشاه (محمد بن تقي الدين عمر ت ٦١٧ هـ/ ١٢٢٠ م):

٣٣ – مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق د حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٥ م.
ابن شهراشوب (رشيد الدين أبي جعفر محمد بن علي ت ٥٨٨ هـ/ ١١٩٢ م):
٣٤ – مناقب أل أبي طالب، المطبعة العلمية بقم، بدون تاريخ.
الصفدي (صلاح الدين بن أيبك ت ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٣ م):
٣٥ – نكت الهميان في نكت العميان، تحقيق طارق الطنطاوي، دار الطلائع، القاهرة، بدون تاريخ.
٣٦ – الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وآخر، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط الأولى ٢٠٠٠ م.
الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير ت ٣١٠ هـ/ ٩٢٢ م):
٣٧ – تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف مصر سلسلة ذخائر العرب رقم ٣٠، ط الثانية ١٩٦٩ م.
ابن الطقطقي (محمد بن علي بن طباطبا ت ٧٠٩ هـ/ ١٣٠٩ م):
٣٨ – الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.
ابن ظافر (جمال الدين أبو الحسن علي بن منصور ت ٦١٢ هـ/ ١٢١٥ م):
٣٩ – أخبار الدول المنقطعة، تحقيق د عصام مصطفي هزايمة وآخرون، دار الكندي، الأردن، ط الأولى ١٩٩٩ م .
ابن العبري (غريغوريوس أبي الفرج جمال الدين ت ٦٨٥ هـ/ ١٢٨٦ م):
٤٠ – تاريخ الزمان، ترجمة الأب إسحاق أرملة، دار المشرق، بيروت ١٩٨٦ م
٤١ – تاريخ مختصر الدول، وضع حواشيه الأب أنطون صالحاني اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٥٨ م.
ابن عساكر (أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ت ٥٧١ هـ/ ١١٧٥ م):
٤٢ – تاريخ مدينة دمشق، تحقيق محب الدين العمروي، دار الفكر، بيروت ١٩٩٥ م
العماد الأصفهاني (محمد بن محمد بن حامد ت عام ٥٩٧ هـ/ ١٢٠٠ ــ١٢٠١م) :
٤٣ – سنا البرق الشامي، اختصار الفتح بن علي البنداري من كتاب البرق الشامي تحقيق د: فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٧٩ م.
٤٤ – خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق محمد بهجة الآثري وآخر، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ١٩٥٥م.

ابن العمراني (محمد بن علي بن محمد ت ٥٨٠ هـ/ ١١٨٤ م):
٤٥- الإنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق د قاسم السمرائي، دار الأفاق العربية، القاهرة، ط الأولى ١٩٩٩ م.
الغساني (الملك الأشرف عماد الدين أبو العباس إسماعيل ت ٨٠٣ هـ/ ١٤٠٠ م)
٤٦ - المسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، تحقيق شاكر محمود عبد المنعم دار البيان بغداد، دار التراث الإسلامي بيروت ١٩٧٥ م
ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ت ٨٠٧ هـ/ ٤ ـ ١٤٠٥ م):
٤٧- تاريخ ابن الفرات، تحقيق د: حسن محمد الشماع، البصرة العراق ١٩٦٩ م.
ابن الفوطي (أبو الفضل عبد الرازق بن أحمد ت ٧٢٣ هـ/ ١٣٢٣ م):
٤٨- مجمع الآداب في معجم الألقاب، تحقيق محمد الكاظم، ط الأولي طهران ١٩٨٦.
الفيروزابادي (مجد الدين محمد بن يعقوب ت ٨١٧ هـ/ ١٤١٤ م):
٤٩- القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٧م.
ابن قاضي شهبة (أبو بكر بن أحمد محمد تقي الدين الدمشقي ت ٨٥١ هـ/ ١٤٤٨م)
٥٠ - طبقات الشافعية، تحقيق د الحافظ عبد العليم خان وآخر، عالم الكتب بيروت، ط الأولى ١٩٨٧ م.
ابن القفطي (جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف ت ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م):
٥١- إخبار العلماء بأخبار الحكماء، تعليق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى ٢٠٠٥ م.
القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي ت عام ٨٢١ هـ/ ١٤١٨ م):
٥٢ - صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٥م .
٥٣ - مآثر الأنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، عالم الكتب بيروت ١٩٨٠ م.
ابن الكازروني (ظهير الدين علي بن محمد البغدادي ت ٦٩٧ هـ/ ١٢٩٨ م):
٥٤ - مختصر التاريخ، تحقيق د مصطفى جواد، المؤسسة العامة للطباعة والنشر بغداد ١٩٧٠ م.
ابن كثير(عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر ت ٧٧٤ هـ/ ١٣٧٢ م):
٥٥ - البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت ١٩٩٠ م.
الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري ت ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨ م):

٥٦ – الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية بيروت، بدون تاريخ.
المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسن بن علي ت ٣٤٦ هـ/ ٩٥٧ م) :
٥٧ – مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، المكتبة الإسلامية، ط الثانية، بيروت ١٩٤٨ م .
المناوي (محمد بن عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي ت ١٠٣١ هـ/ ١٦٧١م):
٥٨ – النقود والمكاييل والموازين، تحقيق د رجاء محمود السامرائي، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، سلسلة كتب التراث رقم ١٠٧، العراق١٩٨١ م.
المنذري (زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي ت ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م) :
٥٩ – التكملة لوفيات النقلة، تحقيق د عواد بشار معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط الثالثة ١٩٨٤ م.
ابن منظور (محمد بن مكرم بن بن أحمد الأنصاري ت ٧١١ هـ/ ١١ ــ ١٣١٢ م):
٦٠ – لسان العرب، تصحيح أمين محمد عبد الوهاب وآخر، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت ط الثالثة ١٩٩٩ م.
المؤيد في الدين (هبة الله بن موسى الشيرازي ت ٤٧٠ هـ/ ١٠٧٧ م) :
٦١ – سيرة المؤيد في الدين، تحقيق د محمد كامل حسين، دار الكاتب المصري ، القاهرة ١٩٤٩ م.
ابن النجار (أبو عبد الله محمد بن محمود بن الحسن ت ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م) :
٦٢ – ذيل تاريخ بغداد، تحقيق السيد عزيز بك، دار الكتاب العربي بيروت ١٩٨٢.
النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣ هـ/ ١٣٣٢ م):
٦٣ – نهاية الأرب في فنون الأدب، المجلس الأعلي للثقافة بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٥ م
ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ت ٦٩٧ هـ/ ٩٧ ــ ١٢٩٨ م) :
٦٤ – مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق د جمال الدين الشيال، إدارة إحياء التراث القديم، القاهرة ١٩٥٣.
اليافعي (أبو محمد عبد الله بن أسعد اليمني المكي ت ٧٦٨ هـ/ ٦٦ ــ ١٣٦٧ م):
٦٥ – مرآة الجنان وعبرة اليقظان، دار الكتاب الإسلامي، ط الثانية ١٩٩٣ م.
ياقوت (شهاب الدين الحموي الرومي البغدادي ت عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م):
٦٦ – معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط الثانية ١٩٩٥ م.
٦٧ – معجم الأدباء، دار الكتب العلمية، بيروت ط الأولى ١٩٩١ م .

ثالثا: المراجع العربية

بدري محمد فهد (الدكتور) :

٦٨ – تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير، مطبعة الإرشاد بغداد ١٩٧٣ م.

حسن إبراهيم حسن (الدكتور):

٦٩ – تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، ط الثانية ١٩٨٦ م.

حسن الباشا (الدكتور):

٧٠ – الألقاب الإسلامية، القاهرة ١٩٨٩ م.

عبد الحسين الشبستري:

٧١– مشاهير شعراء الشيعة، المكتبة الأدبية المختصة، قم، ط الأولى ٢٠٠٠ م.

محسن الأمين:

٧٢ – أعيان الشيعة، تحقيق حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات بيروت ١٩٨٣.

محمد السماوي:

٧٣ – الطليعة من شعراء الشيعة، تحقيق كامل الجبوري، دار المؤرخ العربي، بيروت، ط الأولى ٢٠٠١ م.

رابعا: المراجع العربية المترجمة

كي لسترنج:

٧٤ – بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط الثانية ١٩٨٥ م.

خامسا: الدوريات

سوادي عبد محمد (الدكتور):

٧٥ – حاجب باب النوبي في بغداد، بحث منشور مجلة المؤرخ العربي، العد٢٧، السنة١٢، بغداد ١٩٨٦م.